

عز الدين الدوماني

الكتاب : الطفلة سوريا (رواية)

المؤلف : عز الدين الدوماني

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٩

رقم الإيداع : ١٥٤١ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 325 -7

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net





رواية

عز الدين الدوماني

الإهــداء

من أجل :

- ملهمتي ومن تجذر حبها في قلبي.

- كل ذرة تراب من ثراها الطاهر ، وقطرة ماء من مائها العذب ، ونسمة من هوائها العليل بلدي الحبيب سوريا العطاء.

- من ضحت معي وما زالت في رحلة الحياة.

- فلذات كبدي بناتي الكريمات.

- محبي أوطانهم والمضحين في سبيلها.

هذا الجهد المتواضع

ع . د



مقدمة

الوطن أغلى ما في الوجود على الإنسان ؛ لأن حبه يسكن شغاف القلب ويغدو متجذرًا فيه. هذا الشعور يدركه أكثر من غيره الذين فقدوا أوطانهم أو ابتعدوا عنها أو تعرضت أوطانهم للمخاطر. فنحن فوق أرض الوطن وُلِدنا ، وعلى ثراه ترعرعنا ، ومن مائه رشفنا ، وبهوائه تنفسنا، ومن خيراته تغذينا، وفي ربوعه أودعناه أسرارنا صغارًا وكبارًا. هذا السخاء من الوطن لا يوازيه عطاؤنا مهما كثر. فمن لا وطن له لا هوية له ، لأنه يعيش بلا قلب. هل يمكن لإنسان أن يعيش بلا قلب؟ إن تعلّق الإنسان بوطنه ، وحبه له يدفعانه قدما للتضحية في سبيله بأثمن ما يملك...

بلدي سوريا هي قلبي وروحي ، إنها تنزف أمام ناظري بأيدي أبنائها ، للأسف ، بعدما عطّلوا عقولهم



وحكَّموا غرائزهم ، فأعمتهم الكراهية عن الحقيقة ، فتمادوا إلى حد في إيذاء بعضهم وبلدهم لم يسبقهم إليه أحد من قبل في هذا العصر ، بل امتد إيذاؤهم إلى الطفولة البريئة أمثال سوريا الطفلة عنوان قصتي.

كنتُ أودُّ أن تبقى قصة "سوريا" الطفلة كما غيرها من كتابات عبّرتُ بها عن ألمي لما يصيب بلدي روحي سِرّاً مكتوماً خاصًا من دون نشر، لكن أحد المعارف سمع مني مختصرها فطلب إلي أن أنشرها، فعساها تكشف الغطاء عن أبصار الكثيرين ليروا كم الألم الذي ألحقوه بأبناء جلدتهم... فما سوريا الطفلة إلا واحدة من الآلاف الذين يعانون في ربوع سوريا وغيرها من ظلم ذوي القربى، ألم يقل الشاعر:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنّدِ

إلى كل أم وأب ومعتقل ومشرد وثكلى ومتألم في العالم ، وكل ساعٍ مخلصٍ لإيقاف المآسي : أقدِّم هذه الإسهامة البسيطة لعلها تجلو جزءاَ من الظلام الذي هيمن على النفوس في وطني وغيره ليحافظوا على أوطانهم – قلوبهم- كونها حياتهم الحقيقية.

كما أتوجه بالشكر الجزيل لكل من أسدى إلي النصح والإرشاد في مشواري هذا الذي بدأته متأخراَ، ضارعًا لله أن يسلم أوطاننا العربية والإسلامية من كل مكروه ، ويوقف البلاء عن بلدي لتعود جميلة بلد الحضارة والعراقة والعيش الرغيد.



لم يكن الطفل مازن يمارس حياته الطفولية اليومية كبقية أقرانه في بلدته غير البعيدة عن أقدم عاصمة في التاريخ دمشق الفيحاء، الغافية على صدر قاسيون الهرم والمتربع على بقعة واسعة من أرض الشام المباركة ، الزاحف بكل ما أوتي من قوة نحو الغوطتين الشرقية والغربية المنكفئ عن الامتداد شمالاً، حيث أدار ظهره إلى تلك الناحية ليبدو للرائي من بعيد أنه حارس للغوطتين الحاضنتين لدمشق الخالدة، لقد أسره جمالهما الرائع ، فاسترخى مكتفياَ بما هو عليه ، لكن استرخاءه طال كثيراَ، وامتد عبر القرون الماضية. هذا السكون شجّع الإنسان فمدَّ يده الطويلة إليه ، فبدأت تنهش من جسده الغافي لتأخذ من أحشائه صخورًا لعبت دورًا كبيراَ في صموده تجاه الأنواء المختلفة على مرِّ العصور ، تلك الصخور حوّلتها اليد الآثمة مادة بناء لتشيَد بها منازلها غير آبهة بالعشرة الطويلة بين إنسان دمشق وجبله العاشق ، فعصارته القوية المتينة الصامدة أغرت هؤلاء



الناس بها فاستعانوا بآلاتهم في تهشيمها وتحويلها مادة رملية تسهم في نهوض هياكل بيوتهم الفارهة حتى لا تبقى أحشاؤه أكوام حجارة تعكر صفو العين التي ترنو إلى قاسيون.

لم يكتف الإنسان المفسد السارق لقلب جبل قاسيون والذي مازال يحنو ويعطف على قاصديه أنَّى كانوا بما سلبه من الجبل فتراه يأتيه زائراً صباح مساء زرافاتٍ ووحدانًا طالبًا التمتع بجمال دمشق الساحر ، ومنظر الغوطتين الخلاب الآسر ، فيفتح قاسيون لهم ذراعيه مستقبلاً ، بل يمنحهم الأمان ويبش لهم ويقول : هل تريدون من مزيد؟ قلبي لكم وحضني يكتنفكم، فمرحبًا بأهلي وزواري على مرِّ الأيام. عطاء قاسيون لا ينضب ولا ينفد رغم ردة فعل الإنسان الشره ، فكأن لسان الجبل يردِّد في سِرِّه قوله جلَّ وعلا { هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ }.

تبًا لك أيها العابث بهذا المنظر المتآلف بين عناصر الطبيعة الخلابة ، التي غدت مهوى فؤادك ؛ لذلك قصدتها مستمتعًا ، ومع ذلك لم يقتصر تخريبك على الجبل بل طال الغوطتين فشرعتَ تجتث أشجارهما ومزروعاتهما بجنون واضح غير مبالٍ بلمسات الجمال فيهما وهما تحتضنان فلذات كبديهما ، ولا بردِّة فعل الطبيعة من جرّاء ما ارتكبتْ يداك... يا لك من جاحد !

الجبل المعمر الأشم بقي صامدًا وسيبقى معتدًّا بنفسه معطاءَ لا يبخل على سُكانه وجيرانه. فإن منحته نظرة فاحصة ممحصة أشعرك تربعه الوقور بكمٍّ حنوه وحرصه على سالبتيه اللُب ، الغوطتين ، إنه لهما كعاشقٍ والهِ يضحي بكل ما لديه ليغري به محبوبته علَّها تستكين ، فهو يسمح منذ زمن قابيل وهابيل بأثمن ما يملكه لهما ، فعلى مرِّ التاريخ لم يتمكن أحد من تطويعه إلا هما ، فقد شقت في جسده الأمطار جداول بسيطة



خدمة للغوطتين، وأوكلت لهذه الجداول امتصاص المياه المتدفقة، والسير به، ولاسيما في فصل الشتاء حتى تصبه في نهر الغوطتين الخالد الساعي بكل ما أوتي من قوة نحو قلبيهما، فعساه ينال من جمالهما الساحر كغيره من المعجبين ، فيتهادى عبر حقولهما ليستريح من رحلته الممتدة من الشمال حتى الجنوب في بحيرة "العتيبة"، هناك يصل به الثمل نهايته بعدما تمتع بجمال لا مثيل له حال دون متابعة المسير والترحال، فلم يعد قادرًا ولا يرغب في الذهاب بعيدًا ليبقى قريبًا من هذا الجمال، فاستسلم وقرّر السكون عن الجري ليشكل ماؤه المتدفق عبر الغوطتين بحيرة يودعها سِرّه وما حمله عبر رحلته الطويلة، وليخفِّف من أوصاب العشق والشوق... هكذا حياته منذ زمن.

إن تآلف الجمال بين "بردى" وحاضنتيه والحارس القوي جبل قاسيون أبهر الكثيرين وألهمهم التغني بتلك

اللوحة البديعة في جمالها الطبيعي ، التي عجز أمامها أمهر أساطين الفن التشكيلي ووقفوا مذهولين. هذا الجمال الطبيعي المأخوذ من اتساق قاسيون وبردى والغوطتين من دون أدنى تدخل ليد الإنسان. امتد تأثيره فهو لم يقف عند الفنانين التشكيليين بل تعداهم إلى الشعراء والأدباء وغيرهم من رواد دمشق التي شعرت من جرائه براحة لا متناهية ، فراحت مستسلمة تشم عبق أريج الغوطة ، وترشف من ماء قاسيون ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، كونه ماءَ عذبًا لا يملّه شاربه، وتستنشق من هواء قاسيون النقي ما ملأ رئتيها حتى كادت تفيض به ، فانعكس على وجهها بهاءَ ونضارةً لا تجدهما في غيرها من مدن الأرض ، وبخاصة وقت الشروق ، حيث الشمس تتسلل عبر أشجار الغوطتين الباسقة متوارية عن الأنظار لتسرق نظرة من دمشق المستأنسة بجمالها كأنها تخشى على نفسها من نفسها فعقدت اتفاقًا مع الشمس بأن تأتي أشعة الشمس على



دفعات حتى لا تزعج ملكة المكان والزمان إن هي جاءت دفعة واحدة، فآثرت التسلل بتؤدة عبر الأوراق المتراقصة وببطء بالكاد تشعر بضوئها المتسلل.

هذا المشهد بلوحته الجامعة من لون وحركة وصوت ضاعف روعة المنظر حتى جعله فوق الوصف، ما دفع سادة الكلم متسابقين إلى التغني به بعدما استعصى على الكثيرين من قبل.

تصور معي - يا من حفظك الله ورعاك - إن أصيبت دمشق بأذى، لا سمح الله، ماذا تتوقع من الفنان التشكيلي أو الشاعر؟ ولأكون أوضح فيما ذهبت إليه أدعوك إلى سماع شعر شوقي الذي استشعر أن أذى ما من فرنسا قد يصيب دمشق فقال :

سلام من صبـــــــــا بردى أرق

ودمـــــــــع لا يكفكف يا دمشق

وبي مما رمتك به الليـــــــــــــالي

جراحات لهـــــــا قي القلب عمق

دخلتك والأصيل له ائتـــــــــــلاق

ووجهك ضاحـــك القسمات طلق

سلي من راع غيدك بعـــد وهـــن

أبين فـــؤاده والصخـــــــــر فرق

يبدو الشاعر متأثراً بما حلَّ بدمشق على الرغم من محدوديته، إلا أن تأثره الأبلغ كان في جمالها ؛ لهذا يرى مجرد ترويع فتيات دمشق قساوة لا نظير لها إلا الصخر، فالشاعر يتسلح ببردى ، وما أدراك ما بردى بالنسبة للفيحاء؟ هو ترياقها فبدونه قد لا تعيش ، فإن هي عاشت فستبدو كغيرها من المدن الأخرى... شوقي لا يريد لها أي أذية مهما صغرت حتى لا يتعكر صفوها فيؤثر في جمالها، وكلنا ذاك الرجل لا نريد لسوريا كلها إلا أن تنعم ربوعها بسلام وأمان لتعيش هانئة بأهلها الطيبين لا يلحق بهم أدنى أذى.



مازن بطل روايتي أشدنا حرصًا عليها، وحُبّا لها، فهو الذي تربى في قريته على الشغف بها، حيث غرس أبوه في أعماقه حب دمشق وما حولها منذ نعومة أظفاره، فلنسمع له كيف كان يعيش منذ طفولته الأولى التي جذرت في نفسه حب دمشق وقراها بشكل خاص وسوريا بشكل عام. هذا الحب نما أكثر مع مازن وهو يخطو خطواته الأولى في مدرسة البلدة بالغوطة الشرقية الوادعة.

يقول مازن :

لمستُ من أبي حُبّا جمّا لسوريا تعذر علي معرفة سره في البداية، كان يحاول غرسه في نفسي. فكلما رافقته إلى الحقل الصغير الذي نعيش على مبيعات محاصيله المتنوعة صيفًا وشتاءَ كونه مصدر رزقنا الوحيد، هذا الحقل يبعد عن القرية قرابة ثلاثة كيلومترات، عندما أرافق أبي إليه كان يحدثني عن طفولته في الأربعينيات،

وعن سيرة جدي الذي وضعت له صورة في صدر المضافة، التي تسمى في الغوطة «المنزول» كادت الصورة تلك تزاحم طرفي النافذتين في المضافة الواسعة لتبين للرائي مدى الرجولة التي كان يتمتع بها صاحب الصورة، فهي تظهره شاباً قوياً كله حيوية ونشاط، يمتطي صهوة فرسه كأنه يسبح في الفضاء من شدة انطلاقه تكاد تتخيل أن صورته مجرد خيال، فالوالد أخذها من إحدى الصحف التي كانت مهتمة بميادين السباق في الغوطة. جدي أحد فرسان تلك الميادين المتنقلة بين الغوطتين. تلك الصورة تظهر على كتف جدي بندقية تتدلى بغنج على ظهره إلى الأسفل كأنها أدت ما عليها من مهام، فهي تأخذ قسطًا من الراحة بعد أن نازعها موجة نعاس شديدة أغفتها، لكنها إلى اليقظة أقرب بفضل حزام عريض يشدها إلى ظهر الفارس وكتفه مأخوذ من جلد أفعى لدغتها قاتلة مهما صغرت، على الحزام تتزاحم جيوب عدة تتدافع فيما بينها كي تتسع لمزيد من مؤونة البندقية الشرهة،



والتي لا تشبع.

هذه الصورة طالما وقفت أنا الصغير أمامها متأملاً ، لكنني لم أعرف سرها إلا توًّا، عندما حدثني والدي عن انتساب جدي لرجال الثورة السورية ضد الفرنسيين في الغوطة الشرقية فجدي ، رحمه الله ، كان ثائرًا على المحتلين الذين جاؤوا من بلاد بعيدة تحت اسمٍ مُغرٍ «الاستعمار» ليأخذوا بأيدينا نحن سكان العالم الثالث لكي نواكب حضارتهم ، لكنهم للأسف في ممارستهم اليومية وتصرفاتهم البعيدة عن روح الإنسانية التي جاؤوا من أجلها ظلموا القسم الأكبر منا، فقد نكّلوا بمن يقف أمام نزواتهم وجشعهم حتى كدنا نظن بأنفسنا الظنون، أنحن عبيد نعمل في مزارعهم وفق إراداتهم، لا رأي ولا حق لنا في بلادنا، هذا الاسم كجواز سفر للعبور يدخلون بموجبه الأوطان ليسلبوها حريتها وينهبوا خيراتها، تلك التجاوزات لم يألفها شعبنا بفطرته ؛ لذلك

رفض ظلمهم وتسلطهم فخرج عن طاعتهم ، وحمل السلاح ضدهم بعدما باءت نصائح مشايخ شعبنا لهم بالفشل مفجرًا ثورة عمّتْ ربوع سوريا ردًا على شرورهم وظلمهم وظلم مرتزقتهم من أبناء جلدتنا.

كان أبي ، يا بُني ، يخرج من القرية ويعود إليها متخفيًا عن الأنظار ؛ لأنه مُلاحَق من قِبَل الفرنسيين فنادرًا ما كنت أراه في البيت كغيره من الرجال ، فمداهمات قوات الاحتلال لمنزلنا ومنازل أقاربنا تكررت حتى غدت شبه يومية، ما دفع أبي وغيره من الثوار إلى التواري عن الأنظار، ففي إحدى المرات غاب أبي أكثر من ثلاثة أشهر حتى ظننا أنه استشهد، كانت أمي تحدثني عن رجولته وحبه لبلده وتعلقه بها، فهو لم يغادرها أبدًا قبل الثورة، لكن الضيم الذي لحق بالناس والهوان الكبير الذي مارسه رجال المفوض مع الناس أجبره وغيره من الشباب على مغادرة القرية للالتحاق بالثوار في الغوطة



دفاعًا عن أرضهم التي أحبوها حُبّا راسخًا رسوخ الجبال الراسيات ، فسوريا الجريحة تنادي فلذات كبدها الثائرين ليفكّوا قيدها ويخلصوها من رجز الغاصبين المحتلين، هذا ما استشعره أبي فما كان منه إلا أن لبّى نداءها عملاً بالقول المشهور «إن المُحب للمُحب مطيع».

كان أبي كغيره من أقارب الثائرين في القرية يفتخرون بآبائهم وأجدادهم ، ولاسيما معركتهم الأولى التي استخدموا فيها السلاح ضد دوريات المحتل الفرنسي في منطقتنا ، هذه المآثر والمفاخر كانوا يحرصون أشدَّ الحرص على غرسها في نفوس الجيل الجديد ليحتفظ بها ولتكون حافزًا لهم في الدفاع عن حياض الوطن تجاه العدو ، فضلاً عن أنها جزء من التاريخ المشرف لأهل الغوطة المقاومين للاحتلال على مرِّ الأيام ، فبمجرد أن وصلنا مكان الحدث تغيرت خطوات والدي، وتنهد تنهدًا

عميقًا، ثم نظر فيما حوله وقال:

بُني، حدثني جدك قائلاً : ذات يوم وصلتنا أخبار من عيوننا في دمشق أن دورية فرنسية ستداهم قريتنا للتفتيش عن الأسلحة في بعض المنازل ، ولبث الخوف والرعب في النفوس ، ولتحذير الشباب من الالتحاق بصفوف المجاهدين «المخربين كما سماهم الفرنسيون» حتى تبقى القرية هادئة مستكينة لاحتلالهم. هذه الإشارة تعني لنا أخذ الحيطة والحذر وإخفاء ما لدينا من أسلحة إن كانت موجودة، وإبعاد الثائرين المطلوبين عن أنظار الدورية ، وبالفعل أخذنا بالنصيحة محتاطين ، لكننا – الثائرين- فكرنا بأن نرد على المعتدين ردًا مفاجئًا ومباغتًا يجعلهم يحسبون للقرية ألف حساب قبل مداهمتها مستقبلاً ، أو مجرد التفكير في المجيء إليها بعدما كانوا يعتبرونه نزهة في الغوطة. قلنا هذه المرة وصلتنا أخبارهم من عيون ثوار دمشق في مخافر



الاحتلال، فمن يضمن لنا إيصالها مستقبلاً ؟ لذلك لا بد من رد مناسب عليهم قبل مداهمتهم للقرية، وكشفهم للأسلحة، وإن كانت للصيد، إن وقوعها بأيديهم يعني البلاء لأهل القرية كلها، وقد يساق بعضنا إلى السجون. قلبنا الحدث على كل الوجوه وبعد تلاقح الآراء وافقوني على أن نعمل للدورية الفرنسية كميناً محكماً في طريقها إلى القرية ، ولمّا كنت صاحب الاقتراح ومن السباقين للثورة على المحتل كلفوني بإمارة المجموعة ، ثم شرعنا نبحث عن مكان مناسب يصلح لتنفيذ المهمة، ويمكننا من التخفي عن الأنظار ، وكلما استحسن أحدنا مكاناً درسنا طبيعته إن كان مناسباً، وبعد لأي وتمحيص وقع اختيارنا على هذا المكان.

انظر إليه يا ولدي مليّا، ماذا ترى؟

بالفعل لفت نظري المكان وشعرت كأنني أمرّ به للمرة الأولى عندما دققت به، ونظرت بعيدًا لم أرَ شيئًا ،

فهو يحجب عن القادم أية رؤية من الجانبين سواء الذاهب إلى القرية أو الآيب منها بسبب الهضبة المرتفعة أمامه ، إضافة إلى كثافة الأشجار التي تحيط بالطريق ، حيث تسهم بدور كبير في حجب الرؤية عن مستخدم الطريق فلا تسمح له بالرؤية لأكثر من أمتار.

تابع أبي حديث جدي : وافق الجميع على المكان ، وبدأنا نتشاور في رسم الخطة لتحديد أماكن التخفي في أثناء التنفيذ، كان دوري أساسيَا في اتخاذ القرار وتوزيع الشباب توزيعًا يخدم هدفنا ، ومما اقترحته على الثوار أن يتمركز واحد منا في مكان متقدم مهمته مراقبة الطريق لاستطلاع قدوم الدورية فبمجرد مشاهدته لها يطلق صفرة طويلة ثم يتبعها بصفرة أقصر ليقوم من سمعهما بإبلاغ جاره الأقرب ، وهكذا يستعد الجميع للمباغتة بأن يجهزوا أسلحتهم بانتظار سماع كلمة السر وهي «الله أكبر ، الله أكبر» ، كما وضعت في الجانب



المقابل شخصين اثنين مهمة أحدهما الإعلان إن جاءت الدورية من الاتجاه الثاني، والآخر كانت مهمته تغطية انسحابنا برشقات نارية تشغلهم عنا، ولا يغادر مكانه إلا بعد التأكد من مغادرتنا ساحة المعركة. اخترت لهذه المهمة الخطيرة أشد الشباب بأسًا وقوةً وانتباهًا وقدرةً على الرمي.

نالت الخطة موافقة الجميع عليها مسترشدين بقوله تعالى «وشاورهم في الأمر» كما ذكّرني هذا الموقف الاستشاري الجامع بالقول المأثور «ما خاب من استشار» وبقول أحد الشعراء :

شاور سواك إذا نابتك نائبة

يومًا وإن كنت من أهل المشورات

بني، مروري في هذا المكان بصحبتك ذكّرني بأحداث معركة أحب أن تبقى راسخة في ذهنك وبخاصة عندما تمر في المكان عينه برفقة أولادك لترويها لهم كما سأرويها

لك بلسان جدك الذي أحبّ بلده حُبّا قلَّ نظيره ، بحبه وحرصه الشديد على بلده التقى مع الكثيرين أمثاله ممن أحبوا قراهم في الغوطة رافضين قهر وذل المحتلين فتعاهدوا على أن تبقى قُراهم عصية على المحتلين الغاصبين ما داموا أحياءَ.

من مآثرهم يا بني أحداث المعركة التي سأرويها لك ولكن هذه المرة بلسان جدك لتكون أوقع في نفسك قد قال لي : «هنا كمنت للفرنسيين المحتلين مع الثوار، وأخذ بيده حفنة من التراب قائلاً : ثرى المكان سيشهد لي بالجهاد عند رب العزة «يوم لا ينفع مال ولا بنون» عرفنا من المستطلع أن الدورية قادمة فاستعد الثوار منتظرين سماع كلمة السر مني ، كنت متشوقًا لبدء المعركة ، ولما أيقنت أن الدورية وقعت في الكمين أطلقت رصاصتي الأولى وأنا أكبّر بصوت مرتفع بكلمة السر «الله أكبر، الله أكبر» ليكون وقعها على الغاصبين ومن يتعاون معهم من



أبناء جلدتنا الذين التحقوا بالجيش الفرنسي أشد من الصاعقة ومن كل رصاص الثوار ، لقد زلزلت كيانهم عندما أجابني الثوار بإطلاق العنان لبنادقهم مع التكبير بصوت واحد مكوّنين بتمازج لفظ الجلالة الصداح وأزيز الرصاص الجراح جوقة موسيقية غير مرغوب فيها من الأعداء ؛ لأنها مفاجأة ليست بالحسبان أصابتهم بالهلع والارتباك وبخاصة عندما أيقنوا أن اثنين منهم أصيبا وسقطا عن فرسيهما أرضا فبدأا يصيحان مستغيثين. زاد الرعب في قلوب بقية العناصر فكان رميهم عشوائياَ على غير هدى باتجاه مصادر النيران. شكَّل إطلاق النار المتبادل من الجانبين كثافة نيران عالية لكن الهدف لأصحاب النار مختلف فهو كخطين متوازيين لا يلتقيان. أفراد الدورية يسعون لرد الاعتبار والثأر ، بينما نحن- الثوار- نغطّي انسحابنا بعد إنجازم همتنا ، كنا الأقرب لهدفنا فنحن نراهم وهم لا يرونا ، ولولا خوفنا أن نجر على أهل القرية بلاءَ لا طاقة لهم به لفتكنا بمعظم

عناصر الدورية. هدفنا ، ولله الحمد ، من المعركة قد تحقق وهو أن نفرك أذنهم كما يقال فركة مؤلمة قوية وقد حصل.

تمكننا من التواري عن الأنظار بسرعة ، فمعرفتنا بطبيعة المنطقة أسهم في سرعة انسحابنا، فنحن الأدرى بالأرض وشعابها ، كل منا سلك طريقًا في اتجاه مغاير للتمويه وإبعاد الشبهة ولكي لا يكشف أمره توارى في مكانه عن الأنظار منتظراً عيننا التي تراقب المشهد من بعيد لتعطي الإذن بزوال الخطر، كنا نسمع أصواتهم في البداية عالية لكنها أخذت تخفت كلما ابتعدنا حتى تلاشت.

إصابة الجنديين بنزف شديد نتيجة جراحهما أخافهم وأفادنا، فبحثهم عنا في الحقول القريبة لم يطل بعدما أيقن قائد الدورية أننا غادرنا الموقع، إضافة إلى الرعب الذي ملأ عطفي كل فرد منهم كانوا يتمنون ألا يطول



بقاؤهم في المكان خوفًا من إعادة مهاجمتهم ؛ لذلك تظاهروا بملاحقتنا والبحث عنا ، لكن قلوبهم وجلة ، وألسنتهم تلهج بأن تكون سلتهم بلا عنب مقابل نجاتهم فما أن سمعوا قائد الدورية ينادي « تجمّع تجمّع» حتى أقبلوا ملبين كسهام صوبت نحو أهدافها. حملوا المصابين على خيولهم وساروا يجرجرون خيبتهم وبوارهم مكسوري الخواطر عائدين إلى المدينة.

أما نحن فقد توافدنا إلى مكان التجمع المتفق عليه نتبادل التهاني ، شاكرين لله توفيقه بنجاح الخطة وبتلقيننا الأوغاد درسًا سيبقى محفورًا في أعماق نفوسهم يراودهم كلما فكروا بولوج قريتنا، وحرصا منا على سرية العمل اتفقنا على تجاهل الواقعة والانصراف إلى أعمالنا كأن شيئًا لم يكن ، كما حددنا موعد اللقاء التالي ومكانه مستغلين هذه الفترة في جمع الأخبار عن العدو، وأحاديث أهل القرية عن الحدث، وردة فعلهم.

وصل جدك يا بني إلى أرضه ليمارس عمله اليومي فيها بشغف شديد وهيام يزيد مع الأيام كعاشقٍ متيم، فمنذ صغره أحبها ومنحها أثمن ما يملكه من وقت وجهد وعرق ، ولمَّا كانت أرضه ، كما تراها واقعة على قارعة الطريق غدتْ محطَّ الأنظار. أهل القرية في ذهابهم إلى حقولهم وإيابهم منها يطالعونها مستفيدين من إبداعات جدك في تنظيمها وتنسيق مزروعاتها كأبرع مهندس زراعي أتقن مهنته وصبّ فيها جُلَّ اهتمامه ما جعل سالكي الطريق يندهشون بجمالها فيرونها متميّزة عما حولها.

في المساء عاد جدك إلى القرية مثل بقية الفلاحين. دخل المنزل طبيعياَ ثم غيّر ملابسه ، وجلس يتناول طعامه كالعادة. وإذ بقرع مبالغ فيه على الباب الخارجي لم نألفه من قبل ما بعث الرعب في نفسي ، فرأيت أبي ينتفض كما ينتفض العصفور الذي بلَّله القطر



هاجراً مكانه مسرعًا نحو السلم الخشبي قاصدًا السطح، وهو يضع يده على فمه إشارة لي بألّا أتكلَّم، ولمَّا كانت بعض السطوح متلاصقة في القرية انتقل إلى سطح بيت عمه ومن هناك توارى عن الأنظار.

ما إن فتحت الباب للطارقين حتى دفعني رجل من المداهمين بيده ليدخل إلى صحن الدار من دون استئذان مشيراً للآخرين كي يتبعوه. كان بصحبتهم مختار القرية الذي طلب من الحريم البقاء في ركن الدار.

فتش المهاجمون كل جزء في البيت، لم يسلم مكان من مصافحة أيديهم أو رمق عيونهم ولا من زفراتهم التي تعلو وتطول كلما تعذر عليهم العثور على ما يتمنونه ، حتى بئر الماء القابعة في ركن شبه خفي فتحوها ونظروا فيها، كما فتشوا أحواض الورد في حديقة المنزل ووصل إيذاؤهم إلى السطح.

أنهوا مهمة التفتيش للمنزل ، لكنهم قبل خروجهم سلَّم مختار القرية أمي دعوة لأبي كي يراجع المخفر في القرية المجاورة التي تضم مركز «الناحية» فالناحية تنظيم إداري أصغر من المنطقة وأكبر من القرية.

كنا خلال المداهمة حابسي أنفاسنا خشية وقوع شيء ما يكون في أيديهم ذريعة للبطش والتنكيل بنا. لم نعرف أسباب هذه المداهمة بل ظننا أنها طبيعية شاملة لكل منازل القرية ، لكن تبيّن لنا من بعد أنها اقتصرت على منزلنا فقط ما جعل أبي يتوارى عن الأنظار ما حرمني رؤيته ، فهو إن جاء أتى متسللاً بمعاونة بعض الثائرين الذين يرصدون له الطريق، فلا يمكث بيننا سوى عشرات الدقائق يطمئن خلالها على أهل البيت ثم يغادر.

كم كنت أتمنى ، يا بني ، أن يرافقني إلى المدرسة في يومي الأول كغيره من الآباء الذين اصطحبوا أولادهم إليها.



امتدَّ بنا الطريق ومع ذلك لم أشعر بطوله ؛ لأنني مستمتع بسماع سيرة جدي الثائر ، وبمسيري في مكان جميل يقصده الناس للاستمتاع والاستجمام، كنت خلال حديث أبي أمتِّع عيني بجمال الأشجار الباسقة، فشجر الصفصاف المتطاول إن هبّتْ نسمة ريح تراه يتكئ يميناً وشمالاً ليسند بعضه بعضا، إنه يتمايل بخيلاء لينطلق من أحضانه تغريد الطيور، وزقزقة العصافير كسمفونية موسيقية تسعد ألحانها المتسقة أذني العابر فيشنفهما ليسمع منتشيَاً راغبَاً في المزيد منها، هذه التراتيل طالما كانت تؤنسني في ذهابي وإيابي من الحقل وتبعث فيّ الهمة والنشاط ؛ لذلك تراني أحث الخُطى لأرى أساطين الموسيقى وهي تتطاير من شجرة إلى أخرى، ثم تحطُّ أرضًا أحيانًا لتلتقط من فتات الأرض حاملة ما حطَّت من أجله ثم تعلو من جديد، في المقابل ترى الشمس مقبلة على استحياء، كأن النوم مازال مؤثرًا فيها فتبدو كسولة على نقيض الطيور، همتها فاترة ترسل أشعتها

إلينا كمن يقنِّن الأشياء خوف نفادها، فإنك بالكاد ترى بقعها على الأرض. هذه المناظر لا تكاد تفارقك ما دمت تسلك هذه الطريق التي بجدارة أطلق عليها أهل قريتنا «ملتقى العشاق» ، يأتي إليها روادها من غير مكان فتراهم مساءَ مستبيحين نواصي الطريق يهمس الواحد للآخر بما يجيش في نفسه، أو يسير مع معشوقته بخُطى متثاقلة ليبثَّ ما في صدره من شجون أو هموم ، أو يبسط بين يديها صفحات عتاب كونها لم تأتِ في الموعد المحدد... لكن السعادة قلما تدوم، فلابد لكل بداية من نهاية ، فكأن أرضنا كانت تزحف مشتاقة إلينا بدورها. لم أشعر إلا بولوجها لنبدأ هناك في نسج صفحة جديدة تضاف إلى سيرة حبنا لها ، فيها بدأ أبي أولى مهامه هذا اليوم بعد أن صبّح ثراها كمن يخاطب إنسانًا يعرفه ويبثه ما في نفسه من حب إليه ، وشرع يتفقدها بنظرات تستشف منها مدى الحب الذي يكتنزه قلبه لها فقد غدت جزءاَ منه، يعرف كل ذرة من ثراها.



أراد أبي أن يحتفل بضيفه الصغير فأشار إليّ أن أجلس في ظلِّ شجرة المشمش قائلاً : تمتَّع يا بُني بهذا الجمال الرائع والطبيعة الأخَّاذة، فأنا أتمنى مستقبلاً أن تدرس في كلية الزراعة لتكون مهندسًا تسهم بعلمك في زيادة هذا الجمال البديع حتى يكون مهوى الناس ومحطَّ أنظارهم فيأتون إليه من كل حدبٍ وصوبٍ للاستمتاع ولكي يحاكوه في مزارعهم.

لاقت الفكرة لدي قبولاً منذ صغر سني ، لأنني رضعتُ حُبّ الأرض مع لبان أمي ؛ لذلك نمتْ فكرة أبي كما كنت أنمو ، فبمجرد أن وصلت المرحلة الثانوية أرسلني أبي إلى مدارس دمشق للدراسة في ثانوياتها، آملاً في تحصيلي لمجموع درجات يؤهلني إلى دخول كلية الزراعة. كان ذهابي اليومي إلى دمشق كطالب في الثانوية ثم الجامعة يحببها إليّ يومًا بعد يوم، ويجعلني أذوب بسحر جمالها الرهيب منذ أن تقترب الحافلة

القادمة من قريتنا من دمشق أشعر برغبة في أن يعبّ نظري منها عبّا فأرنو إليها مطيلاً النظر كأنني أراها للمرة الأولى ، فأتصورها غافيةً بحضن قاسيون في نومٍ عميقٍ هانئ فيزيد جمالها جمالاً في عيني ، كما أراها تشبه إشراقة شمس يوم ربيعي ، تحتضنها سماء صافية صفاء قلوب المحبين، يملأ الأفق في هذا اليوم هواء عليل يراقص نبات الأرض كأنه أمٌّ غفا على ذراعها وليدها توًا، فكلما هبّتْ نسيمات الصبا أجابته الزهور الندية متراقصة باستحياء يمينًا وشمالاً ، تلامس الواحدة منها الأخرى برفق ولين كملامسة أم لرضيعها الغافي ، وفي داخلها عاطفتان تتصارعان ، أتبقيه على يدها غافيًا كي ترمقه بين الفينة والأخرى، أم تودعه سريره لينام هانئًا، فهي في مجلسها هذا متململة لا تقوى على كبح أنانيتها لذلك تقوم بتثاقل مرغوب، فعيناها تحدقان به راغبة في إبقائه في حضنها متوسدًا ذراعها، لكن هاتفًا آخر يهمس لها أن ضعيه في سريره فهو الأهنأ له. فتقول في نفسها:



يا امرأة تخلصي من أنانيتك، لكن الهاتف يتكرر غير مرة فتتهادى الأم نحو السرير ثم تودعه رضيعها بتؤدة منحنية عليه، وهي ترمقه بنظرة ملؤها الحنان والرقة، مبررة أن تنازلها عنه مؤقتًا من أجل أن يأخذ قسطًا من الراحة فكلما شطحت عيناها بعيدًا عن السرير عادت إليه متمنية أن يستيقظ حتى تداعبه، كمن يقدم رِجلاً ويؤخر أخرى، ولتعوض تنازلها ذاك تنحني عليه لتلثمه قُبلةً بعد قبلة ولسانها في سرها يقول : مد الله في عمرك لأراك شابًا كبيراً حتى أفرح بك وبأولادك من بعدك... لقد سرى حبه في دمها وغدا ترياقها وبلسمها الناجع وقت اضطرابها يعيد لها راحتها ويبعد همومها، هذه الشمس لا يضاهيها جمال آخر في الوجود فأقول في سري «فتبارك الله أحسن الخالقين».

دمشق وما حولها بعيني حوراء فائقة الجمال، لها وجه يتصدره خدان ورديان يحرسان ثغراً باسمًا يكشف

عن لآلئ لا مثيل لها في الوجود، ويعلوه عينان تشبهان عيون المها كأنهما نرجستان استيقظتا توًّا، يحرس كلاً منهما جفنان يتقدمهما رمشٌ طويل فوق كل عين حاجب كأنه خُطَّ بريشة رسام ماهر أعطى كل ذي حق حقه. هذا المشهد ذكرني بقول الشاعر الذي وصف تأثر من ودَّعها لدى سفره :

فأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت

وردًا وعضَّتْ على العناب بالبرد

يحمل ذاك الوجه الجميل عنقٌ لا بالطويل ولا القصير يدافع عنه شعر ناعم مرسل، أدنى هبة هواء تداعبه بعدما استهواها فوقعت في هيامه، يبدِّد مخاوفها في بعده عنها فتلامسه ثانية فتتفاجأ أنه أنعم من الحرير، فتتراجع خوفًا عليه وتكتفي بما نالها، كل جزء ينطق بجمال بلادي، فهي كقطرة ماء بارد يرشفها صائم بعد يوم قائظ طويل في شهر حار في بلد حار تعرض خلاله



الصائم لشمس حارقة ، فقطرة الماء تلك أغلى من كنوز الأرض كلها، تمتد إليها يده وترمقها عينه بانتظار وصول الليل الذي طال انتظاره، ليسمح للصادي بارتشافها، كل ثانية عنده تعادل ساعات، لقد كادت أنفاسه تزهق من شدة العطش، لكن خوفه من الله يصبِّره، فروحه تنتفض في صدره وعقله يصبره ويصبره فيسلي نفسه بقصة الخليفة هارون الرشيد مع جليسه الذي قال له : مولاي تصور معي ، لا سمح الله ، أنك شرقت فجاءك أحدهم بكأس وطلب منك ثمنه فماذا تعطيه ولا وسيلة لك سواه... أجاب : أعطيه نصف ملكي.

- أبى أن يعطيكها فماذا أنت فاعل ؟
- أعطيه كل ملكي مقابل شربة الماء.

ثم أضاف الخليفة : تباً لملك لا يساوي شربة ماء.

هكذا بلادي في وجداني أراها شربة الماء التي فيها الحياة وبدونها الحمام سأضحي من أجلها بكل ما أملك حتى روحي فهي رخيصة في سبيلها.

انتسب مازن للجامعة ، ثم تخرّج فيها وحُب بلاده ينمو في فؤاده يومًا بعد يوم ، واستلم عمله كمهندس زراعي في أحد المشاتل الزراعية التي تجري التجارب على مختلف النباتات، ولمَّا كان متفوقًا ومُحبًا لمهنته؛ أبدع في عطائه ، بارًّا بما وعد به والده من قبل. لقد حقَّق نجاحًا باهرًا جعل صيته يصل خارج البلاد حتى جاءته العروض المغرية للعمل خارج البلاد. كم مرة حاول مريدوه في الخارج إقناعه بالخروج للعمل هناك مقابل كثير من المزايا ، لكن حبه لبلده انتصر بعد صراع طويل دام شهورًا ، حيث آثر أن يلتحق بالجيش ليؤدي خدمته الإلزامية. جاء مازن إلى بلدته في إجازة اعتيادية خلال الإجازة ، أحبّ زيارة خالته في بيتها ، ولما قرع الباب تفاجأ بفتاة تفتح له الباب. سلَّم عليها مندهشًا وهو يخشى أن يكون أخطأ، فاستدرك قائلاً :

- عفوًا آنستي، أين صاحبة البيت أم خالد؟



- موجودة في المطبخ، ثم نادت :

- خالتي أم خالد، في الباب شاب يسأل عنك.

خرجت أم خالد مسرعة ، وهي تمسح يديها بمريول وضعته على وسطها كيلا تتبلل ملابسها بماء الأواني، وما إن أطلّت لمحت مازنًا فصاحت :

- حبيبي مازن يا هلا يا ابن الغالية، تفضّل.

ابتسم مازن ثم قال :

- السلام عليكم.

- وعليك السلام والرحمة يا روح خالته.

وأخذته بحضنها وقبلته كما تقبل ولدها، وتابعت :

- يا ضرسان لقد اشتقت لك لقد طالت غيبتك هذه المرة أليس كذلك؟

- بلى يا أمي، لكن تأكدي أنني لن أنساكِ فأنتِ في قلبي دائمًا.

أخذت بيده وسارت فأمسك عن المسير ثم قال :

- قبل أن أسير معكِ أخبريني مَن هذه الفتاة ؟

- ما لك والفتاة ألا نعجبك؟

- سامحك الله يا خالتي، ألا يحق لي أن استغرب من وجود فتاة غريبة في بيت خالتي تفتح الباب لمن يطرقه ولا أسأل من تكون؟

هزّت أم خالد برأسها إلى الأمام مقرة بما يقول ، وقالت :

- اصبر فستعرف كل شيء بعد أن تخبرني أولاً عن أهل بيتكم.

- أهلي كلهم ، ولله الحمد ، بخير ويسلمون عليك وبخاصة أختك.

- لا أعلم السر في مقاطعة أمك لي منذ فترة.

- لا مقاطعة ولا غيرها، لها ظروفها هذه الأيام فأختي ستضع بعد أيام لذلك ترينها مشغولة بها، عمّا قريب



أختك ستصبح جدة ولها حفيد أو حفيدة من يعلم؟

- عقبالك يا بطل شد حيلك، عندي لك عروس ما رأيك؟

- ماذا تقولين يا خالتي ؟ أنا في خدمتي الإلزامية أحتاج للمساعدة فكيف أعيل غيري ؟

- هوِّن عليك، العروس لدي، ولا تحتاج إلى أي مصاريف لتعيلها.

- شوقتني لأسمع أكثر.

نادت أم خالد :

- يا نور... نور، تعالي يا ابنتي.

جاءت نور على استحياء.

- تفضلي يا بنتي ، هذا ابن أختي مازن مهندس زراعي يؤدي حالياََ خدمته الإلزامية ، وهو ولدي الثاني مع خالد.

- أهلاً وسهلاً.

- مازن ، نور معلمة في مدرسة القرية من دمشق ، أعتبرها ابنتي التي لم أرزقها، أسكنتها غرفة خالد منذ أشهر حتى لا تبقى خالية حتى تؤنس وحشتي وتملأ الفراغ الذي تركه خالد بعد ذهابه إلى روسيا للدراسة.

- خيراً فعلتِ ، وتشرفتُ بمعرفتك يا آنسة نور ، من أي حيّ بدمشق يا آنسة نور؟

- أنا من حي الميدان.

- حيّ جميل ومحافظ ، لي فيه ذكريات كثيرة ، فقد درست المرحلة الثانوية في مدرسة عبدالرحمن الكواكبي وكونت فيها الكثير من الصداقات، كما زرت العديد من منازل أصدقائي في الميدان أثناء الدراسة ، أكثرهم ما زالوا يتواصلون معي، آه لي هناك ذكريات لن تنسى.

كانت نور تصغي لمازن وهو يتحدث إليها كأنها تعرفه من قبل، لكن حياءها سرّع بطلبها إلى أم خالد أن



تسمح لها بالانصراف كي تتابع عملها ، فلديها أوراق امتحانات تود تصحيحها.

تدخل مازن قائلاً:

- بالمناسبة آنسة نور أي صف تعلِّمين؟

- أعلِّم الصف السادس.

- ممتاز صف متقدم علمياَ، فما رأيك بأبناء ضيعتنا ؟

- لا ضير عليهم ، فيهم الممتاز والجيد والمهمل الذي لا يطيق الدراسة همه الأول الانتهاء من هذه المرحلة الإلزامية حتى يترك الدراسة.

ضحك مازن وقال :

- حتى أنتن في المدارس لديكن إلزامية ، يا سبحان الله ، كل أمر يلزم به يغدو مكروهًا.

- خالتي اسمحي لي...

نظرت إليها أم خالد باستغراب ماكر وراءه ما وراءه وقالت :

- يا بنتي تتحدثين مع مازن ومازن يحادثك ونسيتما هذه العجوز منذ زمن!

- سلامتك خالتي فأنت الأصل، ما عاش من ينساك لقد استجرني المهندس مازن بالحديث فأنا آسفة آسفة.

- لا يا بنتي، أنت حساسة فوق اللزوم، اذهبي إن شئتِ وفقك الله واتركي لي مازن هذا حتى أريه نجوم الظهر.

مازن :

- خالتي ماذا فعلت لك؟ بالله عليك يا آنسة نور ابقي حتى لا أرى نجوم ظهر من خالتي.

غادرت نور المضافة وفي نفسها شعور لم تحس به من قبل ، هذا الشعور يراودها لحظة بعد أخرى ؛ لذلك جلست سارحة تسترجع كل كلمة نطق بها مازن علَّها تعرف سبب هذا الشعور الذي كان ينتابها لحظة بعد أخرى، كما تولدت لديها رغبة بالعودة إليه لكن حياءها منعها.



اتجهت أم خالد إلى مازن ونظرت إليه نظرة مملوءة بالأسئلة وقالت :

- ما لك يا مازن؟ طيّحتك البنت.

- ماذا تقولين يا خالة؟

- أقول الحقيقة هل نظرت إلى نفسك وأنت تتحدث إليها كأنك تعرفها منذ سنوات وبكل أريحية ماذا حصل لك يا ولدي؟

- خالتي نور بنت لطيفة وجميلة ومن بيئة أحبها حتى الوله إنها من دمشق العامرة التي أهيم بها، في دمشق يعيش الغني المفرط في غناه والفقير المدقع ، مدينة عجيبة لها سحر رهيب تأسر من يدخلها من أول وهلة، فكيف بمن عاش فيها سنوات وسنوات ، نور ذكرتني بالدراسة والسهرات في بيوت زملائي بين شجيرات الياسمين وعبقها المتضوع الذي تنشره بعيدًا بعيدا، كما فيها العديد من أنواع الورد الجوري الأحمر والأبيض

والفل والريحان والبنفسج وغيره. كنا نتجمع في الصيف تحت شجر الكباد وعرائش العنب الشامي ، وأمامنا حوض الماء يؤنسنا بخرير مائه الرقراق وهو يعبر الجداول الصغيرة لاهثًا لأحواض الورد يعطيها ماءَ عذبًا من فروع بردى ليأخذ منها روائح زكية مبثوثة في كل مكان، لكنه لا يرغب أن يكون عالة فهو يعالجها بنفسه عندما تتدلى إليه معانقة فيغب منها ما يشتهي.

الحياة في دمشق خالتي لها طعم مغاير ونكهة قل نظيرها فهي – حقًا- ممتعة فلن أنساها مهما شطت بي الأيام ، كيف أنسى "أبا عبدو" وهو يسوق عنزاته في زواريب حارات الميدان وهو يصيح بأعلى صوته: حليب حليب ، فيأتي إليه الناس بأوعيتهم مبتاعين الحليب الطازج. كم كان حنونًا وهو يلامس ثدي العنزة ليأخذ منه الحليب، لم تكن العنزة تبخل عليه فكأن اتفاقًا بينها وبينه غير مكتوب ولكنه موثق ، فتعطيه بسخاء ولا



تفكر بوليدها لأنها متأكدة أنه سيترك له حصته من حليب أمه، وسرعان ما يتركها فتأتي الأخرى إليه ملبية، فالطبيعي أن تهرب ولكن العكس يحصل ألم أقل إن بينهما عقدًا موثقًا. ولا تمر لحظات حتى تسمع بائع الخضراوات الطازجة على دابته يقصد الحي مناديا يا أصابع الببو يا خيار، تعالوا يا حلوين شوفوا البلدي الحلو سكريا باذنجان «ليكو» البامية البلدية الطيبة ما ألذها اليوم!... تهرع النسوة إليه بدورهن يأخذن منه، وربما تذهب إحداهن من دون أن تدفع إليه ثمن الخضار، ويزيدك عجبًا أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة فهو لا يعتذر لأحد أبدًا، فالثقة بينه وبين نساء الحي قوية عمادها الأمانة... أما في المساء فيأتي بائع العرانيس وهو يقود عربته وينادي: ذرة أحلى من العسل.

ماذا أقول وأقول عن دمشق أم المساجد العديدة فلا يخلو حي من غير مسجد ومن المسجد يطل برأسه

صنبور المياه وبخاصة في أحياء دمشق القديمة ليغني سكّانها عن أن يستجروا ماء البلدية إلى بيوتهم ، فالماء المجاني على مقربة منهم. عادات كثيرة في دمشق تستهويك ، لذلك خالتي سرعان ما شدني حديث نور بنت هذه البيئة الطيبة الجميلة فقد رأيت فيها الفتاة الدمشقية التي مزجت بين الأصالة والحداثة ، تحادث الرجال الذين لم تعرفهم من قبل بكل أدب ، وترتدي ملابس حشمة توافق الشرع الحنيف. هذا المظهر طالما تمسك به أهل الميدان.

ما أجملك يا دمشق ، وما أحبك إلى قلبي! فأنت حبيبتي، بالمناسبة خالتي غدًا سأذهب إليها صباحًا حتى أقدِّم أوراقي إلى الجامعة آملاً قبولي لأكون معيدًا في كلية الزراعة إن شاء الله.

- يعني ستعود إلى دمشق للدراسة ثانية.
- ولم لا يا خالتي؟ هذه رغبة أبي من قبل، وهذا عشقي، فأنا سأدرس وأدرِّس هناك.



- وفقك الله يا ولدي.

- شكراً خالتي.

- ولد، لم تقل لي ما رأيك بنور؟

- ماذا تعنين؟

- ولد، ألا تعرف ماذا أعني؟ لقد قرأت في عينيك الكثير وأنت تحدثها، انظر إلي يمكن أن تخفي ذلك عن كل الناس إلا خالتك.

- بنت رقيقة ولطيفة.

- هذا سمعته من قبل أودَّ جديدًا، ما رأيك فيها كعروس سأقولها بالفم العريض.

كان الكلام مفاجئًا لمازن وإن لم يكن غير بعيد عما يشعر به، فصمت ولم يجب، فعرفت خالته أنه في بداية الإعجاب بالفتاة فأرادت أن تأخذه أكثر إلى ما تريده.

- ولدي، البنت مرّ عليها في بيتي فترة لم أعرف عنها إلا الخُلق الحسن والتصرف اللائق المتزن، وهي متمسكة

بدينها ، تخشى ربها في أعمالها. نساء القرية اللواتي يراجعن المدرسة من أجل أولادهن يلهجن بسيرتها الطيبة ويثنين على خلقها الحسن... فكّر بالموضوع بجد فأمامك يومان فقط قبل أن تنزل نور إلى دمشق في عطلة نهاية الأسبوع ، فكل خميس تذهب مساءَ إلى أهلها ولا تعود إلا صباح الأحد ، فما رأيك يا بطل باقتراح خالتك ، بدي أرى أولادك وأحفادك قبل أن أموت ، وسأقول لأمك ما أراه وأظن أنها لن ترفض ، فهي منذ فترة تبحث لك عن عروس. أما الآن بعد رؤيتك نور إن قبلت فكرتي فلن تجد أختي أفضل من نور.

- دعي هذا الطرح جانباً خالتي ، فأنا كما تعرفين أؤدي الخدمة الإلزامية في الجيش ، وراتبي بسيط بالكاد يغطي عشرة أيام من الشهر ، أما الباقي فأمد يدي إلى أمي.



- ولدي إن خطبتَ نور هذه الأيام، وكُتب لك بها نصيب بإذن الله فالخطبة وتجهيز السكن للزوجية محتاج إلى زمن سيقربك جدًا من إنهاء الخدمة الإلزامية ، فلا تفوت الفرصة، وما يدرينا فربما لديها ارتباط بشخص آخر ؛ لذلك سأحاول التأكد من ذلك ، فإن وفقتُ بمسعاي وتمت الخطبة فاترك الأمر لله فهو الرزَّاق لن ينساكما من كرمه ، ولا تنس أنها تتقاضى راتبَا يسد حاجاتكما لأنكما ستعيشان في القرية ، ولله الحمد ، بيت أسرتك واسع يمكنك استغلاله في سكنك ما سيوفر على نور جزءَا من مرتبها الذي تدفعه حاليَا أجرة سكن، سكتت لحظة أم خالد ثم قالت : «لكل مقام مقال» أما الآن فأظن أن الطريق إلى رحلة الزوجية بعد موافقة نور سالكة. روح وافرح يا ولدي وأكمل مأموريتك غدًا في الجامعة ، ثم بلغني بعد غد على أبعد حد فسأكون قد عرفت وضع نور.

كانت دقات قلب مازن تزداد، فلم يكن يتوقع أن تضعه خالته في مثل هذا الموقف الصريح بتلك السرعة. ففي داخله إحساس بالراحة تجاه ما عرضته خالته، إلا أن عقله يقلّب الطرح على كل الأوجه ليقول لمازن : أبهذه السرعة نسجت مع خالتك هذه المسرحية؟

مازن انتبه إن الشباب والشابات يذهبون السنوات في مثل هذا المشروع فلا تتسرع وأعط نفسك فرصة للتفكير، لكن يد القلب المعجب بنور تمتد ببطء لتمسح ما أراد العقل إملاءه مثبتة لمازن صحة رأي الخالة حتى يعمل به.

هذا التعارض بين عقل مازن وقلبه المعجب بنور ذكرني بقصة العالم والعاقل في حوارهما الذي نظمه أحد الشعراء فقال :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا

من ذا الذي منهما قد أحــــــرز الشرفا



فالعلم قال : أنا أحرزت غايته

والعقــــل قال : أنا الرحمــن بي عرفــا

فأفصح العلم إفصاحا وقال له

بأينا اللـــــــــه في فرقـــانه اتصفا

فبان للعقـــل أن العلـــم سيده

فقبـــــــل العقل رأس العلم وانصرفا

الخط البياني لقبول طرح الخالة ارتفع لدى مازن لكنه أخفى ذلك وهمَّ بالاتجاه إلى بيتهم تاركًا في بيت خالته جزءَا من القلب منتظراً جزءه الآخر لدى نور ، والتي فجأة حضر خيالها لدى مازن ، فإعجابه بها على الرغم من فترة اللقاء القصيرة دفعه للتخيل ليصدق عليه قـول الشاعر :

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها

حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

ودَّع مازن خالته قاصدًا بيتهم وجذوة الإعجاب بنور تهب نسائمها الحــارة في قلب لم يكن مهيّأ من قبل لمثل هذا الوليد الجديد.

هل ستنجح مساعي خالة مازن في جمع الجزأين؟
هذا ما سنعلمه في ثنايا فصلنا التالي.

• • • •



الفصل الثاني

ذهبت نور إلى غرفتها مسرعة ثم أغلقت الباب الخارجي ، وجلست مشتتة الفكر سارحة بالحدث الطارئ كمن شُغل باله بأمرٍ مفاجئ استعصي عليه اتخاذ قرار بشأنه... حدّثت نفسها قائلة :

- ماذا حصل لكِ يا نور ؟ أنتِ معروفة بين زميلاتك وزملائك بأنك قوية وجريئة ، كنت تتناقشين مع الأساتذة وتثبتين قوة شخصيتك، فلِمَ تشعرين بالضعف أمام مازن؟ ما الذي حدث؟

مجموعة من التساؤلات طرحتها نور على نفسها علَّها تجد لها جوابًا... كانت تحاول كل مرة أن تبعد عن نفسها فكرة الحب الذي يبدأ أولاً بالإعجاب كما سمعته من زميلاتها ذوات الخبرة، وكما قرأت عنه في الكتب،

لكنها كانت تبعد الفكرة قائلة :

- هل يعقل من اللقاء الأول أن يحصل إعجاب بمازن؟ هذا مستحيل فأنا قوية الشخصية وواعية، وقد قابلت الكثير من الشباب في حياتي، فها أنا أقترب من نهاية العقد الثالث من عمري، ما يعني أنني صاحبة تجربة تعرف التعامل مع مثل هذه المواقف فلا تنساق لها كمراهقة إذا تعرفت إلى شاب سرعان ما تنساق إليه... هوني عن نفسك فلن تعيشي المراهقة ثانية فما هذه إلا دفقة شعورية وستزول.

كانت نور تعاني صراعًا خفيَا عندما سرقتها منه حركة في البهو الخارجي، لتسرع من دون تفكير إلى باب غرفتها المغلق ثم تنظر من يمر بالبهو متوجهًا إلى الباب الخارجي فلمحت مازن، فراعها طوله الفارع وجسمه الممشوق، وقالت : حفظك الله من شاب وسيم رشيق. وتاهت في خيال بعيد جعلها تتصور مواقف أخرى قد تجمعها بمازن حتى تعرفه على حقيقته، لكنها استدركت:



- لا تتهوري يا نور فقد يكون الشاب مرتبطًا أو في قلبه إحداهن، فلا تقعي يا بنت في تجربة تسبِب لك القلق والإرباك، فكري حاليًا بعملك وأهلك، وعندما يأتيك النصيب فلن يضيعك الله، عودي أدراجك وتابعي عملك وانسي هذه الأفكار بل الأوهام التي تستجر المتاعب.

عاشت نور لحظات في هذه الدوامة وإذ بالباب يطرق. تقدمت إلى الباب ثم فتحته لتجد أم خالد بوجهها رحبت بها قائلة :

- أهلاً خالتي.

ثم نظرت كلتاهما للأخرى فكانت لغة العيون الأقوى حيث ابتسمت أم خالد وقالت :

- لدينا في الضيعة يا ابنتي مثلٌ أرجو أن تتقبليه، فأنا لم أتعلم في المدارس، ففهمي على قده؛ لذلك أرجو ألا أخطئ، هذا المثل يقول يا ابنتي نور : « دق الحديد

وهو حامي» فأنا جئتُ إليكِ لأسأل كيف رأيتِ ابن أختي مازن ؟

- ماذا تعنين يا خالتي ؟

- أقول لكِ كيف رأيته؟

- شاب لطيف وسيم متعلم، حفظه الله لأهله.

- هذا كل ما وجدته بمازن؟ أسألكِ عن رأيكِ به.

- قلتُ لكِ : متعلم لطيف لبق وسيم، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ فأنا لم أعرفه من قبل، كل ما عرفته الآن عنه قلته لك.

- سأسألكِ بصراحة متناهية ، هل أنتِ مخطوبة أو مرتبطة بأحد؟

عرفت نور هدف أم خالد فحجبت الإجابة لحظات بينما أم خالد كانت متشوقة لسماع الخبر منفياً، ولمَّا تأخرت نور بالرد كاد قلبها يسقط من صدرها فقالت بحدة :



- ابنتي نور قولي، وقفتِ قلبي، ما بك لا تنطقين،؟

وكرّرت سؤالها ثانية كأنها تعامل ابنتها الحقيقية.

أجابت نور :

- إلام تهدفين من السؤال بالله عليكِ يا خالتي؟
- ألا تعرفين؟ أجيبي وسأقول لكِ بصراحة كما وعدتكِ.
- خالتي أنا غير مخطوبة ولا مرتبطة بأحد.

نهضت أم خالد من مجلسها بسرعة إلى نور ثم حضنتها إلى صدرها وأخذت تقبّلها بلهفة، وتقول :

- ربي يسعدكِ يا نور فرحتني الآن.
- غريب يا خالتي أعدم ارتباطي أو خطبتي يريحانكِ ؟
- نعم يا بنتي فأنا أريدكِ لنا.
- ماذا تقصدين بألغازك، أسلعة أنا لأكون لكم؟
- يا بنتي لا تؤاخذيني أنا لا أعرف مثل كلامكن أنتن المتعلمات، لذلك أقول هذا سامحيني.
- أنتِ بمنزلة أمي، لكن قولي ماذا تعنين؟

- يا بنتي ، مازن ابن أختي شاب تبحث له أمه عن عروس فلم أجد أفضل منكِ له ، فأحببتُ أن أتأكد أنكِ غير مرتبطة حتى أفاتحكِ بالموضوع ؛ لهذا قلتُ لكِ: ما رأيكِ بمازن؟

تظاهرت نور بالتجاهل ولم يخطر ببالها في لحظة أن يجر عليها لقاء مازن المحدود كل ما تفكر فيه أم خالد فمنذ لحظات غادر مازن بيت خالته وهو من قبل لم يرها ، فكيف يطرح الأمر عليها بهذه السرعة ؟ وبشكل جدي؟

لم تجب نور على سؤال أم خالد محاولة التهرب قائلة:

- بعد غدٍ يوم الخميس سأسافر إلى دمشق، فهل ترغبين بشيء آتي به إليك من هناك؟

- سلِّمي على الأهل ، وتعودين لنا بالسلامة ، لكنكِ لم تجيبي عن السؤال بشأن مازن ، ابن أختي مازن مهندس زراعي شاطر وطموح ، كما أخبرني بأنه سيتابع دراساته في الجامعة ، لذلك سيذهب إلى



دمشق غدًا ليقدِّم أوراقه في الجامعة ليكون معيدًا فيها بعد إنهائه خدمة العلم ولديه رغبة في متابعة بحوثه العلمية التي بدأها من قبل، فألف فتاة تتمناه في قريتنا ، فإن كان من نصيبك فستكونين بإذن الله سعيدة معه، فاعلمي أن حبي لكما يدفعني لمثل هذا فهو بمنزلة خالد ولدي الوحيد، وأنتِ مثله، فلو كان لي بنت في سن الزواج لقتلت نفسي ، ولعملت المستحيل حتى أزوجها له. ما رأيك؟

ابتسمت نور وقالت :

- أطلب مازن هذا يا خالتي أم تدبيرك أنتِ؟
- لِمَ السؤال يابنتي ؟ مازن لا يرفض لي طلبًا ، فأراكِ مناسبة له ، فأنتِ متعلمة وجميلة وموظفة وستساعدينه على مشاق الحياة مستقبلاً إن كتب الله بينكما الزواج ، سكنكِ عندي عرّفني بكِ وحبّبكِ إلي ، فأودُّ أن تبقي قريبة مني ، ما رأيكِ ؟ لا تفكِّري طويلاً وقوليها بصراحة حتى أتابع الموضوع مع أختي.

- اتركي لي بعض الوقت حتى أفكِّر أكثر.

- لكِ ما تشائين، لكن لا تضيعي فرصة مازن، سأعطيكِ فسحة حتى تفكري إلى يوم عودتك من دمشق ولن أزيد على ذلك لحظة واحدة، ما رأيك فيّ... أليس كذلك؟

- بلى، لاشك في ذلك يا خالتي.

حضنت أم خالد نور ثانية ونظرت إليها وقالت :

- بربي يا نور أعتبركِ كابنتي، فحبك دخل قلبي بل سكنه وأحبّ لكِ ما أحبه لابنتي، ولا أرغب أن تغادري البلدة أبدًا، فقد عرفتِ أهلها الذين يحبونك، فهم بسطاء يصدقون في تصرفاتهم معك كلها، وفقكِ الله، واسمحي لي بالانصراف لتبقي مع مازن، فكري جيدًا فإن أحببتِ السؤال عن أي شيء يتعلق بمازن أو أهله فثقي سأكون صريحة، فأنتِ أمانة في عنقي. ربي يكتب لكِ الخير.



غادرت أم خالد الغرفة ، وتركت وراءها فتاة تائهة تنهشها خواطر عدة لم تكن مستعدة لها من قبل ، ولم يخطر في بالها أن تكون في دائرة اهتمام شخص لم تره سوى دقائق ، فغدت تسترجع كل كلمة قالتها أم خالد وإلام ترمي من وراءها ما هز كيانها ، وشغل بالها وهفت إليه نفسها.

اضطجعت نور على السرير وتابعت سرحانها غير مكتفية بكلمات أم خالد عن خلال مازن الحميدة بأنه شاب متعلم طموح مهذب يرغب في استكمال دراسته الأكاديمية ليكون أستاذًا جامعيًا ، وكما أنه سيتابع مشروع تخرجه حول استنبات نباتات جديدة من خلال المواءمة بين نبات وآخر... فجأة تقاطع مع هذه الخلال طيف مازن أمامها شاخصًا ، فنظرت إليه بعين الرضا تسترجع تلك الخلال واحدة واحدة كأنما الشاعر يعنيها بقوله :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

لكن عين السخط تبدي المساويا

لمحتْ فيه الوسامة، واستشعرتْ اللباقة في الحديث والسكينة والهدوء، فهو مختلف عمن عرفتهم من الشباب أيام الجامعة. هؤلاء يتسرعون في أحكامهم على الناس من دون تثبّت، لكن مازن يتريث وتبدو على شخصيته سمات الوقار كرجل خبر الحياة فحكمته بعدما نمت أصبحت تتحكم بجُلِّ تصرفاته فلا يصدر حكماً على أحد إلا بعد التثبت على الرغم من صغر سنه... هذه المغريات في شخصية مازن زاحمتها نشأته في القرية التي لها عاداتها وتقاليدها، ما جعل بعضها مختلفًا عن عادات المدينة، قد يسبِّب رفضه من قبل أهلها إن تقدم لخطبتها، فكم مرة سمعت أهلها ينتقدون جيرانهم الذين يزوجون بناتهم من أبناء القرى في غوطة دمشق أو غيرها، فالعُرف في أسرتها على حد علمها لا يسمح



بزواج البنت خارج دمشق، ورب سائل يسأل لماذا وافق أهلها على تعيينها في القرية ، بل سكنها فيها وحيدة أيضًا؟

يرى أهل نور أن عملها في القرية مؤقت ، فطبيعة النظم في وزارة التربية تلزم أبناء المدن من الخريجات والخريجين الجُدد الذهاب إلى الريف لمدة سنتين أولاً ثم يُنقلون للعمل في مدارس المركز إن توافر الشاغر ، أما موافقتهم على سكن نور في القرية فسببه صعوبة الذهاب والإياب من القرية وإليها يومياَ ، ولاسيما في فصل الشتاء، فشتاء دمشق وما حولها قاسٍ وممتد يبدأ خريفًا ويزحف إلى الربيع. كل أيام الدراسة تقع في هذه الفصول الثلاثة ، إذًا الأسهل لنور أن تقيم عند أسرة موثوقة في القرية، هذا الذي حصل فعلاً، لقد زارت أم نور بيت أم خالد واطلعت على أحوال الأسرة عن كثب بعدما أقامت فترة مع ابنتها في سكنها لديهم ، ولمَّا

اطمأنت إلى أوضاعهم وسلوكياتهم أمنّت وتركت القرية، لكنها تعود إليها بين الفينة والأخرى لتقضي أيامًا مع ابنتها.

لم يقف سرحان نور عند هذه الخواطر بل تدخلت بعض المحبطات لحماستها تجاه طلب أم خالد إلى أبعد من ذلك بكثير.

إن معايشتها أهل القرية أشعرها بأن الأسرة في الريف ممتدة، لهذا ترى في البيت الواحد الأب وزوجه وأولاده يقيمون مع الجد وبقية أفراد الأسرة، فإن تزوج الحفيد فقد يقيم معهم أيضًا في البيت نفسه. أما المدينة فوضعها مختلف، فالشاب الراغب في الزواج تراه يبحث عن بيت للسكن خارج بيت الأسرة.

تابعت نور تذكّر الموانع التي قد تحول من دون موافقة أهلها على طلب مازن لها ، فمنها التباين في العادات والتقاليد بين قرية مازن ومدينة دمشق، لكنها



استدركت تقول : أظن أنكِ تضخمين هذا التباين كثيراً. فلِمَ هذا التشاؤم يا أمة الله ؟ قومي واستخيري ربكِ بالموضوع هذه الليلة ، فإن انشرح صدركِ ففاتحي أمكِ لينوركِ رأي ست الحبايب ، فإن كان رأيها إيجابياً فلن تعجزها الحجة في إقناع أبيكِ، أما البقية فأمرهم ميسور.

هذا شأن نور عشية لقائها بمازن ، والتي لم تكن تتوقع لحظة أن يمتد أثر اللقاء وتوابعه حتى وقت قريب من الفجر.

في المقابل لم يكن مسبِّب قلق نور بأفضل حالٍ منها، فحديث مازن معها لفت نظره إليها وأشعره بشيء يشده إليها لم يكن يعرف سِرّه، ليأتي حديث خالته عنها ضاغطًا آخر، ومؤججًا لمشاعره التي أوشكت أن تتغلب على عقله الذي يلحّ عليه بأن الوقت غير مناسب لفتح صفحة جديدة في سجل حياته حاليًا. فكلما حاول الهروب من طيف نور؛ عاوده، فاضطر إلى إعادة النظر

بأحداث الساعات الماضية وأخذها بعين الاعتبار ومناقشتها بجدية حتى لا يتسرع في اتخاذ قرار تجاه الحدث. فرأى أن الارتباط بفتاة مثل نور ليس أمراً سهلاً ولاسيما لمن يعيش ظروفه ؛ لذلك وقف مازن يستقصي جوانب حياته وبدقة متناهية بعد أن منح نفسه فرصة للتفكير قبل أن يقرِّر الذهاب إلى بيت خالته ثانيةً خشية أن تحاصره بأسئلتها الكثيرة، وخوفًا من رؤية نور ما قد يزيد من تأجيج مشاعره نحوها فتضعف مقاومته المبدئية تجاه طرح خالته.

هذا الموقف أملاه عليه عقله، لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا، فهي تكاد أن تفصح عن إعجابه بالفتاة التي أثنت عليها خالته، لكن الذي يؤرقه أكثر من غيره ويهز كيانه أن تكون زيارته الثانية لخالته سبباً يمحو ما بقي لديه من مقاومه لهذا الإعجاب، عندها سيتمكن الحب من قلبه وسيجلب له آلامًا عاشها خلال تجربته السابقة،



والتي بالكاد تخلّص منها، فهو لا يرغب هذا الوقت في تكرار فصولها مع نور ، فالفتاة من بيئة مختلفة عن بيئته ، وعاداتها مختلفة عن عاداتهم وهناك الكثير الكثير؛ فكلما حدثته نفسه بالذهاب إلى بيت خالته ليسألها عن رغبتها في شيء يأتيها به من دمشق تردد ، وسوّف ما ألّب عليه مضجعه تلك الليلة، بعدما خاصمه النوم فبدت ليلته طويلة كأن نجومها شُدت إلى يذبل ، فلم يكن يصدق أن ليله ستنقشع ظلمته حتى زعم أن ساعات ليله هذا تمر بطيئة لم يشهد بطأها من قبل ، ليصدق عليه قول امرئ القيس الذي كابد ذات مرة معاناة شبيهة، فأبدع معبرًا عنها في معلقته :

فيا لك من لــيل كأن نجــــومــه

بكــل مغار الفتل شـــدت بيذبل

ألا أيها الليــــل الطويل ألا انجلي

بصبح، وما الإصبــاح منك بأمثل

خال مازن أن الليل سرمدي ، كما زاد من اضطرابه هروب النوم عن عيونه، فكلما حاول قهر الأرق بتلاوته للقرآن أو بالسماح لخياله ليسرح في ماضٍ فائت أو مستقبل آتٍ ؛ هاجمه طيف نور وكلام خالته ضاغطين عليه ومحاصرين له من كل تجاه ليبقى محبوسًا في دائرتيهما، يقلب الضاغطين على كل الأوجه ممنياً نفسه بالنجاة ومتعللاً بمقولة الأيام كفيلة أن تنسيه ما نسجته خالته في أثناء زيارته لها، لكن عاطفته المتصارعة مع عقله كانت مرارًا تتغلب حتى استسلم لها ، فقال في نفسه: لِمَ لا أفكِّر جادًّا بما اقترحته خالتي؟ إن اقتراحها ممكن وقريب جدًا مني، ومتلائم مع واقعي.

لهذا مدَّ يده إلى ورقة قريبة من سريره الذي اضطجع عليه ، ورسم عليها جدولاً ذا حقلين ، وأخذ يثبِت في الجدول أرقامًا كأنها نقاط في مخطط أرض زراعية كلف إعداده ، فنقاطه على الورق كأنها تشير إلى مواقع



الشجيرات المزمع غرسها وقت التنفيذ. بنى مازن آمالا على بز نقاط الإيجاب نقاط السلب في مقترح خالته أم خالد، وكان يتمنى أن تكون نقاط الإيجاب أكبر رقمًا من نقيضاتها ، فكلما قرب قلمه ليضع نقطة في جدول السلبيات خفق قلبه ، وارتج قلمه في يده مترددًا في تدوينها، لكن عقله الآمر يضغط فتذعن اليد مستسلمة وتسوِّد مكان النقطة. كان مازن دائم البحث في زواياه هنا وهناك علَّه يجد ما يوازي نقطة السلب، فإن عوَّضها بنقطة إيجاب تنفس الصعداء ، وأكثر ما يرعبه من السبق بين الحقلين أن يكونا متساويين في كم النقاط.

استغرقتْ لعبة مازن وقتًا طويلاً من ليله الطويل الذي حجب تنفس صبحه عن المهمومين ، ما دفعه لاستخدام كل ما في حوزته من عتاد لقهر طوله ، فممحاته بين إصبعيه لامست شفتاها عشرات المرات حقلي جدوله ، تقبلهما من جرّاء تمحيصه لكل نقطة في جانبيه ليكون عمله موضوعيًا صادقًا يعطيه نتيجة

يطمئن لها تكون بعيدة عن سلطان مشاعره. هيهات هيهات أن يتجرد المرء في مثل هذه المواقف من العاطفة.

أنهى مازن لعبته، وانتقل إلى مرحلة أخرى، وهي عد نقاطها التي صبها في الحقلين، فما النتيجة يا ترى ؟ هذا ما كان يهم مازن بل يحرص عليه ، بدأ يعد النقاط واحدةً واحدة في حقلي الجدول بوضع إشارة (صح) ولما أنهى كم النقاط الإيجابية التي عدّها أولاً سجلها في نهاية الحقل ، وخلص إلى الأخرى فما كاد ينتهي منها حتى شعر بإحباط ، إذ أظهر له الإحصاء أن الفرق بين نقاط الحقلين بسيط للغاية.

عاد مازن أدراجه إلى فسحة التفكير من البداية وشرع يمحص النظر بكل نقطة سلبية على حدة ، سابراً أغوار كل جزء منها علَّه يكتشف ما يرضيه ، فيستغني عنها ليرفع من كم نقاط الإيجاب التي تلائم هواه.



طالت مماحكة مازن للنقاط الرمز في ليله الطويل البهيم ، فلم يشعر بنفسه إلا مسروقًا من نومٍ يخطفه فجأة من لعبته. كم تمنى مازن من قبل أن يأخذه هذا النوم ليخلصه من معاناته ، لكنه استعصى عليه فتركه رهينة لمشاعر تألبت عليه مثل فتاة نظر إليها فتى خلسة فبادلته النظرة فوقع في نفسها أن الفتى هام بها، فأخذت وردة وشرعت تعبث بأوراقها نزعًا لتقول مع كل ضحية من أوراق وردتها الأسيرة (يحبني ، لا يحبني) حتى جردت الأسيرة من لباسها المخملي الجميل الذي كساها ما جعلها رسولاً بين المحبين. كانت الأسيرة تجود بأريج كلما انتزعت الفتاة وليدة من وليداتها، آملة أن يشفع لها هذا العبق لتوقف العابثة تجريدها من ملابسها ، لكن محاولاتها باءت بالفشل والخيبة ، فاستشعرت بغصة لا نظير لها وبخاصة عندما صادفت الورقة الغضة الأخيرة ما لا ترجوه الفتاة الواهمة بقولها(لا يحبني)، هذا النطق الأخير أشعر الفتاة باليأس

فرمت جسد الوردة العاري أرضًا ثم مرغته بالتراب حنقًا وغضبًا، لأنها لم تواتِ رغبتها.

هذه الحال عايشه مازن فأطارت النوم عن عينيه ، ولمَّا انغمس في لعبته خطفه النوم خطفة سريعة على الرغم منه ، فلم يوقظه من نومه هذا إلا طرقات على الباب خفيفة كانت صاحبتها أمه التي استغربت مجريات ليلة مازن تلك بدءًا بالأنوار المضيئة حتى وقت قريب من الفجر ، ثم غياب مازن عن صلاة الفجر في المسجد ، رغم النور الساطع الممتد ، حتى قرعها على الباب الذي أيقظ مازن من نومه مذهولاً ليقول في نفسه : ماذا جرى لي، فما إن فتح الباب حتى قابله وجه بشوش ينطق صاحبه بكلماته المحببة :

- يا بعدي صبّحك ربي بالخير ، أحببت إيقاظك حتى تذهب إلى الجامعة فقد خفت أن يسرقك النوم فيضيع يومك.



- وأنتِ صبّحكِ ربي بالنور والخير العميم ، شكرًا لكِ ، بالفعل سرقني النوم وضيّع عني الصلاة في المسجد.

- حبيب أمك قم وتوضأ ثم صلِ، لأعدَّ لك الإفطار حتى تذهب إلى الجامعة، فالساعة تجاوزت السابعة.

توجه مازن إلى الحمام وفي طريقه تذكر قول المتنبي الذي يصدق عليه :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

توضَّأ ثم صلَّى الفائتة في غرفته، ليجد طعامه جاهزًا، تناول الطعام ثم غيّر ملابس نومه وخرج قاصدًا الحافلة ليذهب إلى دمشق ، وفي طريقه إلى موقف الحافلة القريب من مدرسة القرية رأى نور متوجهة إلى عملها، فتوجس خيفة وتردد في السلام عليها خوفًا من أهل القرية الذين يشاركونهما الطريق، حتى لا يكون حديثه

مستغربًا مع فتاة غريبة عن القرية ما سيسوق أسئلة كثيرة مِن قِبل بعض المتطفلين؛ لذلك تجاهل مرور نور رغم صعوبة ذلك عليه، وهرب من الموقف باختيار أبعد نقطة في طريقها المعاكس، لكن قلبه البصير وعينه الرائية يسترقان النظر ليريا ما يؤكده هاجسه.

في الجهة المقابلة في الطريق لم تكن نور أقل منه في هواجسها وخواطرها وهي تنقل خطواتها الهوينى، وأكثر ما كانت تخشاه أن يصبِح عليها مازن فيضعها في حرج شديد بين الرد أو عدمه.

اقترب كلاهما من الآخر في لحظة حاسمة حابسًا أنفاسه أن يقع المحظور من الطرف الآخر، لكن اللحظة الحاسمة مرّت بسلام فلم يُلقِ مازن التحية على نور التي حمدت لله أن هدى مازن إلى هذا التصرف الحكيم، إلا أن عينها الناظرة أرضًا لم تكن مشغولة بالطريق أكثر من استراقها رؤية مازن نظيرها في المشاعر، فخفقات قلبه تتسارع،



وعيناه تسترقان النظر إليها. كلاهما يشعر بما يتأجج في فؤاد الآخر. لمَّا تجاوزا نقطة اللقاء الحتمية حدَّث مازن نفسه بأن ينظر وراءه لعله يراها ترمقه ما سيخفِّف من لهيب ما يلفحه من نيران تضطرم في داخله، لكنه خاب، وبالمثل فعلت ولم ترَ ما تحب منه ، وتابعا مسيرهما متباعدين حتى قطعا الأمل فيما يرغبان، وبالصدفة نظر كل منهما خلفه فرأى ما يحب على الرغم من تباعدهما، فتنفس الصعداء ليصدق الحس لديه، وليكون معه بطاقة العبور لما بعدها.

ركب مازن الحافلة المتجهة إلى موطن حبّه الأساسي دمشق الفيحاء ، محاولاً تسلية نفسه بالمناظر التي تحتضن معظم الطريق، لكن طيف ما جرى له من جراء رؤية نور العابرة حال دون أنسه بالمناظر ومتعته بجمالها المتمثل بمداعبة الرياح كأنها تصافحها بتؤدة فتراها تنحني كمن يرد التحية احترامًا لمن سلَّم عليه.

كان مازن ينقل عينيه من منظر إلى آخر مسبِّحًا ومحوقلاً وتاليًا آيات ربه في هذا المقام من مثل {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

كانت حافلة مازن كثيرة التوقف لا ترضى أن يعتب عليها أحد في الطريق، فكلما أشار إليها شخص لتحمله توقفت لتضيفه إلى ضيوفها الكُثر، وليسمعك سائقها بصوته الأجش ديدنه : يا شباب من فضلكم إلى الأمام ليصعد أخوكم... الأمام «فاضي» من فضلك يا أستاذ تقدم قليلاً... وهكذا تسمع من رُبَّانها، حتى ضاقت عن ركاب فشكلّوا كتلة بشرية تتحرك مع حركتها يمينًا ويسارًا بسبب الطريق غير الممهدة تمهيدًا سويًا، هذه الكتلة البشرية مرصوصة يشدٌّ بعضها بعضا. لم يقتصر التوقف على حمل الركاب فهو ممتد ليشمل من فيها، فإذا وصل أحدهم مقصده أشار إلى السائق ليتوقف ، فتأتي استجابته سريعة ليملأ مكانه بزبون جديد. هذا التوقف



السريع يدفع الكتلة للزحف أمامًا حتى تتكدس الأجسام فوق بعضها بعضا، فتسمع التأفف والنقد واتهام السائق بأنه غرّ في القيادة.

وصلت الحافلة في نهاية المطاف إلى محطتها الأخيرة بشارع الأمين. نزل الركاب منها مسرعين ليودع المتعارفون بعضهم بعضًا قاصدين أهدافهم من المجيء إلى العاصمة ، ومنهم مازن الذي أشار إلى سيارة أجرة طالبَا من سائقها أن يحمله إلى كلية الزراعة.

انطلقت السيارة مسرعة تنهش الطريق ، كأن قائد السيارة راغب في تعويض مازن الوقت الذي افتقده من قبل ، فسرعان ما وجد مازن نفسه أمام الكلية ، شكر السائق ونقده مبلغًا فاق الرقم الظاهر على شاشة عدّاد الأجرة ، ثم ترجّل ودخل من باب الكلية متوجهًا إلى الديوان. هناك سأل أحد الموظفين عن المسابقة الخاصة بالمعيدين ، فأشار الموظف إلى كوة في البناء المجاور.

ذهب مازن إلى البناء ووقف أمام الكوة، ولما وصل دوره قدم أوراقه التي قلبّها الموظف ورقة ورقة. كان مازن وجلاً من أن يطلب الموظف منه أوراقًا أخرى ، لكن الرجل وقَّعها ووضع عليها خاتمه ثم سلَّم مازن ورقة صغيرة تحمل رقم وتاريخ تسلُّم المعاملة للمراجعة مستقبلاً. شكر مازن الموظف وانصرف ولسانه يدعو الله أن يحقق طموحه بأن يقبل في سلك التدريس بالكلية ليحقق طموحه في إجراء التجارب على النباتات المستحدثة من تهجين وغيره. كان موضوع تخرج مازن شيّقا ؛ لأنه يدور حول توليد سلالات نباتية جديدة ما استهواه وولَّد لديه الرغبة في متابعته في الجامعة.

عاد أدراجه إلى القرية والأمل يحدوه بأن تتحقق رغبته. بقي من إجازته يومان ثم يلتحق بقطعته العسكرية، لكن شغله الشاغل بعد الجامعة كان حديث خالته عن نور، والذي فجّر في داخله المشاعر والمشاغل.



غادرت نور بعد ظُهر الخميس القرية متجهة إلى دمشق لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيت الأسرة، لكن سفرتها هذه مختلفة عن سابقاتها، فهي محملة بمشاعر جديدة غرستها فيها أم خالد، جعلتها تبحث عن طريقة مناسبة تمكنها من إطلاع أمها على الموضوع وإقناعها به علَّها تستفيد من خبرتها بما يمكِّنها من إقناع الأب إن جاءه مازن خاطبًا. انشغالها بالحدث لم يشعرها بالوقت فسرعان ما وجدت نفسها في شارع الأمين، نزلت من الحافلة ثم استقلت سيارة أجرة حملتها إلى ساحة الأشمر ومنها دخلت إلى طريق فرعي أوصلها إلى المنزل.

تقدمت إلى الباب ثم طرقته كعادتها طرقات خفيفة تمثل كلمة السر بينها وبين أمها التي نهضت من مجلسها مسرعة، وهي تقول لزوجها : أبا ياسر، نور وصلت.

فتحت أم ياسر الباب لتطلَّ نور بوجهها الجميل فأخذتها أمها بأحضانها وشرعت تقبلَها على وجنتيها كما

تلثم النحلة زهرة متفتحة توّاً، وتقول لضيفتها الوافدة:
- ما أطيب رائحتك يا نور! لا أدري يا ابنتي ما حصل لي فقد شعرت أن أيام هذا الأسبوع طويلة، فلم أصدق أنها ستنتهي ، لكنها ولله الحمد مرت فوالله لولا مستقبلك لما سمحت لك بالذهاب مرة أخرى.

وجدت نور في هذا الكلام مدخلاً مناسبَاً لمفاتحتها بالموضوع ولكن فيما بعد، توجهت إلى الليوان فوجدت أباها مضطجعًا على أريكة مستريحة في مكانها منذ طفولة نور ، فسلَّمت عليه آخذة بتقبيل يديه وهو يحاول نزعهما منها لكن قواه الخائرة لم تمكنه الفكاك من يدي نور ، وليخلص نفسه من الموقف قال لها : يا ابنتي أعطني قبلة، ففعلت.

غيّرت ملابسها وجلست تتبادل الأحاديث عن القرية وما فيها مع والديها مضمنة حديثها بعضًا من سيرة



جارتها أم خالد، ومعاملتها الطيبة التي لاقتها منها كأنها بنت لها، ثم اتجهت إلى أمها قائلة :

- هذه أخباري يا ست الحبايب فما أخباركم ؟

- لا جديد يا ابنتي ، لكنني سأبوح لك بسر قبل أن تذهبي للنوم.

- قولي الآن يا ست الكل فقد شوقتني لمعرفته كثيرا.

- لا تتسرعي فأنا أود أن يزيد شوقك له.

قالت نور في نفسها : هذه فرصة يحسن استغلالها لأبث لها ما يشغلني.

-وأنا سأقول لك سرا أيضا.

نظرت الأم إلى عيني نور وقالت :

عيناك يا نور تنبّئ بشيء جديد يمكن لي أن أخمنه...

وهما في حديثهما هذا سمعتا إيلاج مفتاح في قفل الباب ، فعرفت نور أن أخاها عاد من عمله فتوارت في

الغرفة الجانبية بسرعة.

دخل الشاب وسأل أمه قائلاً :

- ألم تصل نور بعد؟

- الأم : ما رأيك؟

- رأيي بماذا ؟

- بعمل نور خارج دمشق وعودتها إلى المنزل في وقت متأخر ؟

- أماه معظم بنات جيلها يعملن في الأرياف خارج دمشق في بداية التعيين. فترة ستنتهي يوما ما لتعود إليك نور ، لكن تذكري أن نور لن تبقى عندك إلى الأبد، فسيأتي يوم تغادر فيه إلى بيت زوجها، أما من سيبقى لديك فمحروسك. عولي علي أنا يا ست الكل.

خرجت نور مفاجئة أخاها بسؤال :

- هل لديك عريس يا بطل حتى تقول هذا الكلام ؟



- أين كنت أيتها الآنسة؟

- كنت في القرية.

- لا أعني القرية يا شطورة ، بل لماذا تتخفين عني ؟ أحمد لله أنني لم أغلط عليك.

- أليس حرامًا أن تغتابني ، شوف ما أحسني معك ، سامحك الله يا أخي وسندي.

- هوني من ثورتك علي قليلاً، فأنت نور كل النور أليس كذلك... ؟

ضحك الجميع لهذا الحوار ، فأضاف عليه يوسف قائلا لنور : أأسلم عليك الآن أم انتهى التسليم؟

اكتمل عقد الأسرة بمجيء أخ نور الأكبر ياسر وزوجه ليسلما عليها ، وليسهرا في بيت العائلة ككل خميس. دارت بينهم أحاديث منوعة ، استغلت ست الكل انشغالهم عنها ، وذهبت إلى المطبخ لتعدَّ لهم عشاءَ

لذيذًا به تكمل سهرتهم، فعلى الرغم من العشاء إلا أن أحاديثهم لم تتوقف، فكل واحد منهم حريص على إقناع الآخر بما يراه صوابًا، ما جعلهم غير شاعرين بالوقت الذي مرّ سريعًا ما يعني دعوتهم لإنهاء هذا الجدل. تململ ياسر في أريكته ثم نظر ساعته وقال :

- أف لقد تأخرنا يا جماعة، اسمحوا لنا بالانصراف فنور تعبة من سفرتها فلا بد لها من أن تنام لتريح جسدها.

ودَّع أهله وغادر إلى بيته. وافق انصراف ياسر انسلال يوسف بدوره إلى غرفته للنوم، ومن قبل الأب.

انفرط عقد الأسرة فلم يبقَ سوى الأم التي انفردت بنور طالبة منها أن تقول لها سرها، لكن نور أصرت على أن تسمع من أمها سرها أولاً احترامًا للسن وتقديراَ لمكانتها. استجاب قلب الأم الرؤوم للإصرار والإلحاح الظاهري، لكن إلهامًا ما جعل نور تتوقع ما ستقوله أمها والتي كانت تتخيل أن ابنتها ستطير فرحًا لدى سماعها



هذا الخبر ؛ لذلك اقتربت منها أكثر حتى كاد جسدها يلاصق جسد نور خشية أن يسمع أحد سرهما، وبدأت تحدثها همسًا عما جرى بينها وبين أختها أم توفيق التي تحب نور، وتكن لها التقدير، فأم توفيق تعتبر نور ابنتها الثانية ؛ لهذا جاءت طالبة يد ها لابنها.

استقبلت نور سرد أمها للسر ببرود، فلم تُبدِ أي ردة فعل تجاه ما سمعته من أمها ، ما جعل الأم محتارة ومذهولة من تصرف ابنتها، فرفعت صوتها قائلة :

- غريبة أنت يا نور لم يبد عليك أي ردة فعل. أتسترين فرحك عني أم أنك لم تستوعبي ما أقول؟

وأضافت :

- أيمكن يا ابنتي لفتاة أن تسمع مثل هذا الحدث الجميل ولا تتأثر؟ لا لا أنت غريبة يا نور فما سر هذا البرود في ردة فعلك؟!

-أماه ألا تودين الحقيقة ؟

- لِمَ تطرحين السؤال بهذه الصيغة، أتعتقدين أنني أريد غير الحقيقة ؟

- لا ، لا سمح الله ، ولكن أسألك ما عمل توفيق هذه الأيام؟

- تقول خالتك إنه يعمل في ملحمة كبيرة بحي الميدان.

- حسناً، الملحمة كبيرة، لكن ما وظيفته فيها ؟

- لا أدري إلا إن خالتك قالت : بأنه يتقاضى أجراَ محترماً يؤهله لبناء أسرة.

- يا أمي توفيق يعمل أجيراَ في الملحمة، فهو حتى الآن لا يتقن مهنة اللحام، وإنما متدرّب، فبالله عليك أترضينه زوجًا لابنتك، وهو لا يتقن أي مهنة من المهن؟

- يا بنتي الشاب يسعى ليتقن مهنته، ولديه من الخصال الحميدة ما يشفع له ، مهذب وسيم يكسب من جهده ، لا عيب فيه ، يمتلك مع أهله بيتًا كبيراَ ، لا



خدمة إلزامية عليه فهو وحيد أمه. هذا يعني للعروس الكثير، زيادة على ذلك أهله ميسورو الحال، فلا يحتاج لمال كثير في حياته الزوجية، وبخاصة عندما تعودين إلى دمشق فإن أضفتِ مرتبك إلى دخله الشهري غدا مجموعهما كافياً لكما وزيادة، إضافة إلى أنه قريبك ؛ الأمر الذي يحتم عليه رعايتك أحسن رعاية ، فأنت من دمه ولحمه ، كما قيل في الأمثال : «عمر الظفر ما خرج من اللحم».

أطرقت نور أرضًا ولم تجب عما سمعته من كلام أمها ليهيمن على المكان سكون أكثر مما كان من قبل ، ما أشعرهما بروحانية غاب سببها ، فالحديث أصلاً كان همسًا. قطع رتابة السكون الذي ساد دقائق قول أم ياسر :

- يا نور ، أنتِ نور عيني ، بالله عليك طمِّني قلبي يا ابنتي، فإنني أحب أن أفرح بك اليوم قبل الغد، فما

يقلقني إن تأخّر زواجك أن يقال عنكِ عانس.

- أماه ، أنتِ تعرفين حُبي لكِ ورغبتي في تحقيق ما تريدين، فـ"توفيق" هذا لا يناسبني لا من قريب ولا بعيد.

- كلامك يا بنتي يجعلني أزعم أن في حياتكِ شخصًا آخر.

- أماه، علامَ اعتمدتِ باستنتاجك هذا؟

- يا بنتي، مجرد أن سمعتِ السِرّ رفضتِه، كما كانت ردّة فعلك باردة وأبديتِ عدم اكتراث ولم تعطِ نفسك وقتًا قليلاً حتى للتفكير فيه، كل ما سبق يوحي بهذا الاستنتاج.

- أتودين الحقيقة يا أماه ، هناك شاب يعمل مهندسًا زراعيًا، ويطمح أن يكون أستاذًا جامعيًا، إن شاء الله، سيتقدم لخطبتي، فما رأيك؟

نظرت الأم إلى نور نظرة مملوءة بالتساؤلات التي لا



حصر لها في مثل هذه المواقف، لكنها اختزلتها بقولها :

- نور ماذا تقولين ؟

- ما سمعتِه أماه.

- يا ابنتي ربي يسعدك، ولكننا لا نعرف شيئًا عن هذا الشاب.

- أماه، الشاب من القرية التي أعلِّم بها، وابن أخت جارتي أم خالد التي أسكن في دارها. أنتِ أماه قد زرت القرية وخبرت أم خالد وصدقها وأخلاقها من قبل، كم مرة سمعتك تثنين على خلقها، إنها تعاملني كأنني ابنتها، صدقي أماه ما أقول.

- ابنتي هناك كثير من المعوقات تقف حاجزًا مانعًا من دون موافقتي على طلبك، بل موافقة أبيك بالدرجة الأولى، منها أن أباك لا يرضى زواجك أن يكون خارج دمشق، ولغير أبناء دمشق أيضًا، لخوفه عليك والتزامه بعادات وتقاليد أهل الميدان. ناهيك عن

موقفي تجاه طلب أختي لك بعد ما عشمتْ نفسها بأنك ستوافقين على طلبها بقبول ولدها معتقدة أنه كفء لك ، كما أن زواجك من الشاب سيبعدك عنا فكيف تعيشين بعيدة عنا ؟

- أماه سهلي الأمر ، فما أنشده أولاً هو موافقتكِ أنت ، أما الآخرون فربنا سيساعدنا على إقناعهم وبخاصة أبي ، فأنت يا ست الكل قادرة على إقناعه فهو يحبك ولا يرفض لك طلباً.

- بنت... اسكتي لقد تجاوزنا هذه المشاعر منذ زمن ، فنحن نحبكم ونحب أحفادنا القادمين من بعد حبكم.

- أماه ما زلتما ، ولله الحمد ، تحتفظان بشبابكما فلِمَ تقولين هذا الكلام ؟

- يا ابنتي ماذا سأقول لأختي؟

- الأمر بسيط يا أماه ولن تعجزك الحجة ، فإن سمحت



لي أن أقول.

- تفضلي.

- قولي يا أماه : نور تعتبر توفيقًا أخًا لها، فهما تربيا معًا وسنهما واحدة فكيف يتزوج توفيق فتاة تمثله سنًا، فالمعروف عن المرأة أن الكبر يظهر عليها مبكرًا ما قد يسبب لتوفيق الندم مستقبلا، فلم لا يتزوج من فتاة أصغر منه سنًا. هذا من جهة ومن جهة أخرى حاولي أن تعرضي عليها بعض الفتيات من الجيران عساها توافق على إحداهن وأكثري من الإطراء عليها أمامها.

- ما أسهل الكلام يا بنيتي! أنا خجلة من أختي التي أرادت أن تكوني إلى جانبها عند كبرها فهي أماه راغبة فيك.

- أماه الزواج قسمة ونصيب أليس كذلك ؟

- يا ابنتي بربك لا تتسرعي بالموافقة على هذا الشاب حتى أعرف ما يدور بخلد أبيكِ، أعطني فرصة لأطرح

الموضوع.

- لكِ ما تشائين، ولكن اقتنعي أنتِ أولاً.

- يا ابنتي أنت وحيدتي ، وسعادتك مطلبي ، وحياتك مستقرة في بيتك مستقبلاً يريحني ، فإن مِت مت قريرة العين.

- عمرٌ مديدٌ يا ست الكل ، لقد أتعبتكِ وجعلتكِ تسهرين معي ، اذهبي أماه ونامي ، واسمحي لي أن أقول لكِ : تصبحين على كل خير من الله.

- وأنتِ يا بنتي.

ثم قبّلت نور أمها، وردت الأم القبلة بمثلها.

ذهبت الأم إلى غرفتها لتنام، لكن نور المعجبة بمازن داعبها شعور بالأمان لم تعرف مصدره ، فلجأت إلى سريرها وسلمته نفسها، آملة بنوم هانئ بعد أن طردت الهواجس التي شغلتها من قبل ، فحمدت ربها لِما



وصلت إليه، وشرعت تفكر بردة فعل أبيها متصورة أن يناديها صباحًا ليؤنبها على فعلها بالتعرف إلى شاب أجنبي في مكان غريب عنها بعض الشيء، وتاهت في كم من الإجابات التي تعدها للإجابة عن تساؤلات أبيها دافعة عنها التُّهم التي قد تلحق بها في تلك القرية المحافظة على تقاليدها.. لكن النوم أخيراً تمكَّن منها فراحت تغطّ به.

بدأ الليل يجمع شتاته من كل جوانب الكون مكونًا جسدًا واحدًا حتى يتمكن من الرحيل، ولكيلا يترك أثراً بعده يتمسك به أصحاب الأعذار الكسالى المستسلمون لنوم عميق، أعلن مفصحًا عن يوم جديد تأكد بنداء المؤذن في المسجد القريب من بيت نور وهو يدعو إلى الفلاح والنجاح.

نهض أبو نور من فراشه بتثاقل وأيقظ زوجه ثم

توضأ وتوجه إلى المسجد لأداء فريضة الفجر جماعة كعادته ، ولما عاد وجد زوجته قد أعدت له فنجانًا من القهوة على غير المعتاد.

تعوَّد أبو ياسر ألا ينام بعد صلاة الفجر وإنما يتلو القرآن حتى إشراقة الشمس ، ثم يصلي الضحى ويتناول إفطاره ويخرج إلى محله المتواضع في الحي طالبًا رزقه من الله ، فهو لا يحب أن يعيش عالة على أحد ، لكن إعداد زوجه القهوة وجده أمرًا مختلفًا عما مضى ، فسأل أم ياسر :

- ما لكِ أراكِ هذا اليوم على غير عادتكِ لم تذهبي للنوم بعد، بل أعددتِ لي القهوة ؟

- أحببتُ يا رجل أن أجلس معك قبل أن يصحو الأولاد فهل من مانع لديك؟

- لا أبدًا، إن شاء الله، ما الأمر؟

- أتعدني بأن تسمع مني الحكاية حتى نهايتها وبألّا



تغضب؟

- غريب شأنكِ يا امرأة، قولي، لقد شغلتِ بالي.

- لا تذهب بعيدًا، فكل الأمر خير إن شاء الله.

- يا امرأة أوقفتِ قلبي، قولي ربي يسلمك.

- أبا ياسر الأولاد كبروا ، والحياة تغيّرت عن الماضي فما كنا نرفضه قديماً أصبح مقبولاً ومرضياَ عنه هذه الأيام.

امتعض أبو ياسر وأصلح من جلسته لأنه لا يرغب في المقدمات الطويلة وقال لها :

- إذا لم تبدئي حديثك حالاً فلن أسمع ، أود أن أكمل وردي اليومي.

- حسناً ، قلتُ لك لا تغضب ، ابنتنا نور تقدم لخطبتها شابان، فما رأيك؟

- رأيي بماذا؟ الشابان لم يتقدما لي فلِمَ رأيي؟

- يا رجل لا تتسرع فأنت تاج رأسنا ولا يمكن أن يتقدم لغيرك وأنت على قيد الحياة ، ولكن الأعراف تقتضي أن يبقى الأمر سِرّاً في البداية لذلك جيء إلي.
- حسناً، من هما هذان الشابان ؟

تفاجأتْ أم ياسر بردة فعله السريعة وامتعاضه ، فالغضب واضح على قسمات وجهه حتى كادت أن تمسك عن الحديث ، لكنه ألحّ عليها بأن تجيب عن أسئلته كلها.

- يا رجل نور ليست صغيرة ، فهي معلمة وقد تخرجت من الجامعة...

قاطعها:

- هذا الكلام أعرفه، قولي كلاماً لا أعرفه.
- أمس جاءت أختي أم توفيق وطلبت إلي أن آخذ رأيك في تقدم ابنها توفيق لخطبة نور.



- ماذا قلتِ لها ؟

- أجبتها بأنني سوف أستشيرك ثم أخبرها برأيك.

- تستشيريني وحدي ، أليس من حق نور أن تستشار أيضًا ؟

- بلى، ولكن بعد موافقتك، فإن رفضتَ أنت فلِمَ أستشر نور؟ أنت أبوها وأعرف الناس بمصلحتها ، واستشارة نور مرهونة بقبولك أولاً.

هذا الكلام هدّأ من مخاوف الرجل وروع المفاجأة فقال :

- توفيق شاب محترم وابن أسرة سمعتها حسنة ، لكنه غير متعلم فما أخشاه أن يختلفا فتصعب الحياة بينهما. إن جاءت إليك أختك اشكريها واعتذري لها فهو مثل أولادنا نحب أن يستمر الود والحب بيننا فلا نخسرهم ولايخسروننا بسبب الأولاد ، ولديك من الفطنة ما يجعلها تتقبل رأينا في عدم الموافقة على

توفيق.

عرفنا الشاب الأول فمن الثاني؟

- الثاني لا أعرفه، وإنما فقط استشارتني نور، ولم تقل لي أن أقول لك، لكنني لا أخفي عليك شيئًا كما تعلم، فربما بودها أن تفاتحك بالموضوع بنفسها. إنه مهندس زراعي ابن أخت المرأة التي تسكن نور في بيتها، وهو سيعمل مستقبلاً أستاذًا جامعيًا.

- ما شاء الله لحقت تتعرف نور على شاب في القرية ومن ثمّ يتقدم لخطبتها.

- ما الخطأ يا رجل؟ فهي فتاة في عقدها الثالث، درست أربع سنوات في الجامعة والتقت بكثير من الشباب فيها ، ومع ذلك لم يسبق أن طرحت مثل هذا ، فالشاب رآها في بيت خالته وأعجب بها ، فكلَّف خالته أن تفاتحها بالموضوع إن لم تكن مرتبطة.

لم يجب أبو ياسر على كلام زوجه مباشرة بل أعطى



نفسه فسحة للتفكير ما دفع زوجته لتقول :

- ما رأيك؟

بقي الرجل من دون إجابة يفكر وبعد لحظات قال لها :

- في المساء سأرى نور لأعرف منها أكثر.

كانت تتزاحم على فكره؛ بل تتصارع؛ هواجس كثيرة حول الحدث ومسوغاته ومعوقاته ، حتى غدا في بحرها كمن لا يجيد العوم في الماء الكثير ، لذلك تراه يضرب الماء بكلتا يديه علَّه ينجو من موت يلاحقه كأسد جائع فاغر فاه لا يحول بينه وفريسته أي مانع، فرائص هذا العائم ترتقص فزعًا وهو يرى حمام الموت يطبق عليه من كل جانب ، ماذا سيفعل إنه يبذل كل طاقاته ومهاراته التي كان يظن أنها ستفزع إليه لتخلصه من مأزقه ، لكنها تتهاوى خائرة القوى ، وبالمقابل يداهمه أسد كاسر جائع قادر على تحطيم كل ما أمامه وصولاً

لمبتغاه في الفريسة التي ستملأ معدته الخاوية منذ...

نظر الرجل بعين مرتابة لكل ما قيل له وذهب بعيدًا يلعن ضعفه يوم وافق على ذهاب ابنته إلى الريف للعمل ، فهؤلاء الناس لهم عاداتهم وتقاليدهم ، ونحن هنا لنا عاداتنا وتقاليدنا ، فكيف أواجه من حولي وهم يرمقونني بعدما يعرفون أن نور تعرفت إلى شاب في القرية. إن عيونهم ستنهش جسدي ، يا الله ما أصعب تلك اللحظات التي سأعيشها عند انتشار الخبر!... بالمقابل جاءه هاتف ليقول : نور تربيتك يا رجل فقد خبرتها منذ صغرها، وهي طالبة في الجامعة فلم تخطئ في يوم قط، ولم يقل أحد عنها شيئًا يعكر صفو حياتك. فنور في هذه الأيام أكثر علمًا ونضوجًا مما سبق. الزواج من الأمور الشخصية في الدرجة الأولى، فالدين الحنيف منحها حرية الاختيار، فلِمَ تقيَّد يا رجل ما أطلق؟ لا، لا إن أعجبني طرحها وتأكدت من صدقها فلن أخيب ظنها



بي، فهي ابنتي الوحيدة... ربي وفقني للخير واجعلني غير متسرع بالرد على طلبها عند سؤالها ؛ لهذا سأبيّت مساء استخارة عسى أن يكشف الله عن بصيرتي ويلهمني الصواب حتى أفعله.

تابع سرحانه ثم نظر حوله فلم ير زوجته قريبة منه فعرف أنها ذهبت لتعد له طعام الإفطار فقال في نفسه: سوف أطيَب خاطرها بكلمتين عساهما تخففان من قلقها، فهي تعيش معاناة ليست بأقل من معاناتي.

دخلت زوجته تحمل طبقًا كبيراً عليه أصناف من الطعام الخفيف. نظر إليها أبو ياسر نظرة مملوءة بالحنان والعرفان بالجميل وقال :

- قوّاكِ الله يا أم ياسر، سامحيني قد تباطأت بالرد عليك، لن أطيل انتظاركِ، فبعد أن أعرف الموضوع من نور سأقول رأيي.

- هذا شأنك يا رجل، البنت بنتك ربي يسعدها ويقدِّم

لها الخير كله.

تناول أبو ياسر طعامه وخرج إلى محله يحمل هَمَّ حدث جديد طالما فكّر به كأب، لكنه حلَّ بحياضه هذا اليوم فجأة من دون مقدمات ما جعله كالأعمه لا يثبت على رأي مشتت التفكير ، فحديث زوجه عن الشاب القروي دفعه للتفكير بطلب ابن أخت زوجته أيضا ظانًّا بأنه مخرج حسن من زواج ابنته خارج دمشق ، لكنه استدرك عندما جاءته هواجس توحي له بأن نور سترفض ابن خالتها ، ورغبته كأب في سعادتها من جهة أخرى فكيف به يرغمها على الزواج بمن لا ترغب فيه؟ كما أن التباين بين مستواهما الثقافي خفَّف من أسهم توفيق ورفع من أسهم مازن... بقي طيلة يومه يصارع تلك الخواطر بين هذا وذاك جاعلاً المخرج للمعاناة تلك استخارته ربه أولاً.

قضى أبو ياسر نهاره الطويل في محله التجاري بين



زبائن يبتاعون من معروضاته المتواضعة، وهي بمجملها توابل وبقوليات وما شابه ذلك، وبأحاديث مع جيرانه فيما جاوره وبالذهاب إلى المسجد، لكن شغله الأكبر انصب على موضوع نور والشاب القروي، فما أن أرخى الليل سدوله على الكون حتى أباح أبو ياسر لغلق المحل أن يعلن نهاية يوم عمل طويل، ثم غادر محله قاصدًا المنزل، هناك استقبلته زوجته وابنته مرحبتين.

لم تكن نور تعلم أن أمها أخبرته بقصة الشاب القروي، لأن أمها لم تحدثها بما حصل بينها وبين أبيها؛ لهذا كانت نور مطمئنة ببقاء سرها مكبوتًا لدى الأم فقط حتى يأتي مازن حازمًا أمره ليخطبها بشكل رسمي من أبيها في تلك اللحظات تتظاهر المرأة بالمفاجأة من طلب مازن، فتدير مع الأب حوارًا تحاول إقناعه به حيث تذكر له بعضًا من خصال مازن التي ذكرتها لها نور ومن قبل خالته، وبخاصة سعيه إلى الإقامة في دمشق

بمجرد أن يعمل في الجامعة...

تناول الأب طعامه ثم ذهب إلى المسجد وأدَّى فريضة العشاء، ولما عاد إلى المنزل صلّى ركعتي الاستخارة واندس في فراشه على غير عادته.

كان تصرفه فألاً غير مبشِّر بالخير بالنسبة لأم ياسر، فخشيتْ أن يكون إخباره بقصة القروي أربكت كيانه ما قد يستجر عليه عواقب صحية هو في غنى عنها.

تعاطت المرأة مع الحدث من كل جوانبه لكنها لم تفلح في الوصول إلى قرار بشأن زوجها وما آلت إليه حاله، فأحبت أن تنصرف عما هي فيه، فذهبت إلى غرفة نور التي جلست منفردة تفكِّر بتصرف أبيها، فليس من عادته أن يتركها من دون أن يمحص كل جزئية مرّت بها نور خلال الأسبوع المنصرم، وأطلقت لنفسها العنان بحثًا عن السبب، لكنها وقفت عند طلب أمها موافقتها على الزواج من توفيق، ورأت به سببًا مواتيًا



فربما أخبرت الأم الأب برفضها مجافياً لما يرغب ؛ لذلك ارتبك كيانه فغدا يعيش في صراع العاطفة مع صراع العقل فأيهما يغلب. دخول الأم أنقذ نور من شبح التأويلات ولاسيما قولها لها :

- كأنه مكتوب علينا أن نسهر هذه الليلة وحدنا بنيتي عكس ليلة أمس فأخوك الصغير لم يأت حتى الآن.

تنهدت نور وقالت :

- أماه أبي ليس كعادته اليوم أتعرفين السبب؟

- ماذا سيكون السبب؟ فربما جاء تعِباً فرغب في الراحة.

- بالله عليكِ أن تصدقي معي ، هل يعلم أبي بطلب خالتي؟

- لقد أخبرتُه أمس.

- هل وافق على طلبها؟

كانت نور تنطق بكلماتها هذه ، وقلبها وجف يكاد

يصل إلى ركبتيها خوفًا وجزعا بأن تجيب أمها بنعم. هذه النعم ستكون وبالاً عليها مستقبلاً وستضعها بين نارين يتعذر النجاة منهما مهما كانت الوسائل ناجعة. ضاعف خوف نور تردد الأم في الإجابة مباشرة وبخاصة عندما قالت :

- لِم هذا السؤال؟

كانت نور تتمنى أن تقول أمها إجابة صريحة تسقط عن كاهلها غموم الأرض كلها ومتاعبها ، إنها تعيش لحظات لم تألفها من قبل ، فالصدر الحنون والعقل الراجح الحكيم الذي تلجأ إليه مستشيرة أصبح مصدر قلقها، هذا ما كانت لا تخاله أن يحدث يومًا ما، فقالت في نفسها : ما أتعسكِ من فتاة يانور ! جئتِ لتفرحي ، لكنك ستعودين بآلام لا حدود لها.

نظرت أم ياسر إلى نور بعينٍ مملوءة حنانًا، وببصيرة أم تحب السعادة لابنتها، ثم قالت :



- بنيتي لا تجزعي ، واتركي لي الأمر ، فالله أسأل أن يوفقني في نقل رغبتك إلى أبيكِ وإقناعه بما تريدين.

كاد وقع هذا الكلام أن يطيِّر قلب نور فرحًا، لقد غيّر نفسيتها، كما يقولون في الرياضيات /١٨٠/ درجة، وهي تسمع أم الدنيا تقوله، إنه يعني لنور أن أول عُقدة من عُقد الزواج من مازن قد حُلَّت بسهوله لم تكن تتوقعها أبدًا، فنهضت من مجلسها متغيراً شكلها مسرعة مذهولة وشرعت تقبَل أمها في أي مكان وقع عليه فمها، وتجأر لله أن يطيل عمرها. ها هي تحقق ما تأمله من زيارتها بيسر وسهولة ما أعطاها ثقة بنفسها وأشعرها أن الله سيزيل كل المعوقات من طريق زواجها من مازن.

ساد حوار هادئ بين نور وأمها، ركّز على إقناع الأم للأب بمازن إن جاء يطلب يدها بشكل رسمي، من دون أن تبلغ الأم ابنتها بأن الأب لديه علم بما جرى بينهما من قبل. وطاف خيالهما بعيدًا وهما يتبادلان الحديث

عن المستقبل وما تحمله نور من طموحات أن تشتري شقة قريبة من أهلها إن عمل مازن أستاذًا في الجامعة، ومتابعًا بحوثه العلمية والتي يرغب من خلالها في كشف الجديد من عالم النبات.

كانت نور تتحدث لأمها عن مازن حديث الملم بكل التفاصيل ما أبهر أمها ، وأشعرها بكم المشاعر التي تختزنها نور تجاه مازن، فتقول في نفسها : ربي يسعدك يا بنتي ولا يجيّب لك مطلبَا أو رجاء.

ساعات الأنس والفرح تمرّ سريعة بعُرف الفرِحين السعداء، فلم تجد نور نفسها في ليلة سعادتها هذه إلا مضطرة إلى أن تعدَّ عُدَّتها للسفر المرغوب فيه هذه المرة سفرتها هذه ليست كسابقاتها إلى القرية، في القرية غدا لها أناس تكنُّ لهم مشاعر حب واحترام قد تمكنوا من ولوج قلبها المغلق سريعًا ومن دون استئذانها.



في الصباح الباكر ستذهب نور إلى شارع الأمين قاصدة القرية لمتابعة عملها هناك ما دفع أمها إلى أن تعد لها الكثير من الأطعمة من دون أن تنسى أم خالد، وحتى مازن الصهر المستقبلي فقد ناله من جود أم ياسر بعض الشيء.

بدأ أبو ياسر ليلته هذه بأداء صلاة الاستخارة بعد مكابدة طويلة مع أحداث مفاجئة له، لكن إيمانه بالله هدَّأ من روعه فقرأ ورده قبل النوم، وغطَّ فيه ليستيقظ كعادته على الآذان الأول. كان يشعر بأمان واطمئنان مختلفين عن اليوم السابق، فاستقرأ بهما رضا من الله وتوفيقه باتجاه الموافقة على مازن، على الرغم من المعوقات الكثيرة أمامه، ومن أهمها إصراره من قبل على زواج بنات إخوته وأخواته من دمشقيين لا غير. هذا كان يمثل له كابوسًا يؤرقه وبخاصة عندما يعلم أهله وجيرانه بموافقته على مازن إن جاء خاطبًا نور. حاول أن يريح

نفسه من هذا العبء بالقول : لكل وقت ملائكته فربي لن يخذلني وسيفتح لي طُرقًا لتبرير ما أفعله لكي أخرج من ورطتي.

ودَّعت نور أمها وأباها واستقلت سيارة أجرة إلى شارع الأمين، ومن هناك ركبت الحافلة إلى القرية، فلمّا وصلتها كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف، ما يعني أن أمامها أكثر من ساعتين يمكنها استغلالهما في تنظيف غرفتها وترتيب ما حملته معها من دمشق ، وإيصال الأمانة لأم خالد ؛ لذلك بمجرد أن وصلت المنزل قرعت الباب فخرجت أم خالد مستقبلة لها مرحِّبة بها ، ثم تعانقتا وسألت كلتاهما الأخرى مطمئنة عن الأهل ، فجاء جواب نور أن أمها حملتها السلام لأم خالد وأرسلت لها هدية ، فأسرعت نور إلى فتح حقيبتها لاستخراج الهدية، لكن القدر شاء أن تنزلق رجلها فتقع أرضًا فصرخت مولولة لتفاجأ بصوت مازن يقول من بهو



الدار: سلامات سلامات، خير إن شاء الله يا خالتي.

- بُني لله الحمد سليمة.

بعدما تأكدت من نهوض نور واقفة على رجليها.

سلَّمت نور جارتها الأمانة وقلبها يخفق لأنها سترى مازن، وشردت مع خيالها تعطيه الفرصة مفكِّرة بلحظة اللقاء التي لم تكن بالحسبان مطلقًا.

نادت أم خالد ابن أختها :

- يا مازن تعال سلم على نور.

ظهر الإرباك على نور من هذا الطلب وبخاصة عندما سمعت مازن يقول :

- أتسمحين لي آنستي أن أسلم عليك وأودعك فأنا سألتحق بعملي لقد انتهت إجازتي.

تدخلت أم خالد وقالت :

- تفضّل يا ولدي.

فأقبل مازن وقلبه يخفق استجابةً لخفقان قلب نور التي شعرت بكم المشاعر الممزوجة بالأمل والخوف من هذا اللقاء، خشيت أن تفضح قسمات وجهها ما يكنزه فؤادها تجاه مازن الذي لم يكن بأقل منها رهبة، وبخاصة عندما نظر إلى عيني نور فكانت مشاعرها واضحة، وكذلك اكتشفت نور في عيني مازن وقسمات وجهه نفس المشاعر. سلَّم على نور وسألها عن أهلها وسفرتها إلى دمشق، وبتوالي الحديث بينهما شعر كلاهما بانحسار الرهبة شيئًا فشيئا، فقالت نور لمازن: تفضّل.

جلس مازن على أريكة قرب الباب فأرادت أم خالد بمكرها أن تتركهما معًا فلعلهما يصرَحان بما استقرأته في عيونهما، قائلة: سآتي لكما بواجب الضيافة، ابنتي نور قادمة من دمشق وولدي مازن سيغادر إلى قطعته العسكرية، اسمحا لي، وخرجت.

ساد المكان صمت رهيب عجيب، كلاهما يرغب أن



يقطع هذا الصمت لكن الجرأة تخونه ، لكن تباطؤ أم خالد حتم على مازن أن يبدأ الحديث بسؤال نور عن القرية والحياة فيها ورأيها بأهل القرية وأبنائهم في المدرسة، حتى طرح عليها سؤالاً:

- هل فكَّرتِ لحظة بالبقاء في قريتنا؟

- ربما أبقى إن لم يُوافق على طلب نقلي إلى المدنية.

- هذا يعني أنك غير مرتاحة هنا.

- من قال ذلك؟

- تقديمك لطلب النقل ينطق بهذا.

- لا أبدا فأنا سعيدة في جيرة خالتك وفي عملي مع أبناء القرية وها أنا تعرفت عليك.

- أتسمحين لي أن أسأل سؤالاً.

- تفضّل.

- لو حتَّمت عليك الظروف البقاء هنا أتوافقين على

ذلك؟

كان سؤال مازن رسالة مبطنة إلى نور تخفي في ثناياها ما يفكِّر به كلاهما، لكن دخول أم خالد عليهما جنَّب نور حرج الإجابة عن السؤال. كانت أم خالد تحمل لهما ما جادت به يداها من مشروبات طبيعية صنعتها من ثمار أشجارهم في الموسم، معتبرة مشروبها هذا إيذانًا بقُرب ما يفكران به، وكعادة أهل الفطرة تدخلت من دون إذن قائلة :

- حبايبي أنا لا أعرف ما تسمونه بعرفكم الجديد الأتكيت ولا المجاملة، يا ابنتي نور ما رأيك بمازن؟

صمتت نور ولم تجب، فحولت السؤال إلى مازن قائلة:

- ولدي ما رأيك بنور؟

لم يجب مازن كردة فعل متوقعة، فقالت أم خالد :

- يظهر أنكما تخجلان، فأنتما تليقان لبعضكما، كلمة أقولها بصراحة مطلقة، وما سيحدث فليحدث، حملي



على الله.

ساد الصمت لحظة وأم خالد تنتظر ردة الفعل منهما ولما يئست من إجابتهما قالت :

- على بركة الله اتفقنا ، أنا أتكلم بلسانكما ومن لديه اعتراض فليعترض أمامه فرصة دقيقتين فقط ولن يكون هناك وقت ضائع.

ضحك الجميع ، وبدأت أم خالد تحدق بساعتها بعد أن استخدمت إحدى أظفارها لتفتح غطاءها، ما جعلهما يستمران في الضحك.

- يا سلام عليكما ، ألف مبارك لكما ، ستكونان أجمل عروسين في القرية. اذهب يا مازن وأرسل لي أمك من دون أن تقول لها كلمة واحدة ، أنا سأتصرف معها ، وأنتِ يا ابنتي لك وقت آخر.

ودَّع مازن خالته ونور، وقلبه فرح بما وصل إليه بعد أن ملأ عينيه من نور التي لم تكن في مشاعرها بأقل منه.

تابعت أم خالد مساعيها حيث أقنعت أم مازن بالموضوع ، وشرعت تفكر بطريقة تمكنها من استخلاص موافقة أهل نور في ضوء ما سمعته من قبل أن أبا نور لا يوافق على زواج ابنته من قروي ، فتفتق عقلها أن تستغل ذهاب نور إلى دمشق فتحمّلها هدية لأمها ردًّا على هديتها ثم تبلغها دعوتها إلى القرية حتى تعدَّ مع أم خالد مؤونتها من ورق العنب ، فهذه الفترة مناسبة جدًا لقطفه وتجهيزه.

وبالفعل نجحت الخطة، وجاءت أم ياسر إلى القرية، حيث فاتحتها أم خالد بالحدث المحبب لكل أهل لديهم أبناء أو بنات.

تظاهرت أم ياسر بأنها فوجئت بطلب أم خالد ، وحاولت التهرب من الإجابة ، لكن أم خالد حاصرتها وتمكنت من إقناعها بضرورة جمعها بأم مازن ، فلما اجتمعت المرأتان دار بينهما حوار طويل شاركت في



بعضه أم خالد ليخلصن في نهاية المطاف إلى الاتفاق على كثير من الخطوات.

وشاء الله أن يأتي مازن بإجازة ساعية إلى القرية ، فتعرف على أم نور عن كثب ، فوقع في قلبها لدماثته وحسن خُلقه، فشعرت من خلال هذا اللقاء كأنها تعرفه منذ زمن ، ووعدت بأن تساعدهم عندما يأتون لخطبة نور رسمياَ.

لم يكشف أبو ياسر لزوجه ما شعر به بعد استخارته، ولم يحدِّثها بشأن نور منذ حديثها له ، كما هي أعرضت عن الحديث بالموضوع ، فالوقت كفيل به ، لكن عودتها من القرية وما جرى معها هناك حفّزها أن تطرحه من جديد أمام زوجها، مبدية إعجابها بأهل القرية وكرمهم وحبهم لنور ، وتعرفها على أم مازن من قرب ، وقد حمّلوها طلبَا إليه أن يحدِّد لهم موعدًا حتى يأتوا لخطبة نور منه رسمياَ.

سمع كلامها من ألفه حتى يائه، ثم سألها:

- هل شاهدت الشاب؟

- نعم شاهدته دقائق عندما جاء مسلِّمًا على خالته، فهو يؤدي حالياَ خدمته الإلزامية ، فوجدته شابًا وسيمًا مهذبًا فارع الطول وجهه كله استبشار ، حفظه الله لأهله، اسمح لي أن أقول : يستحق فعلاً نور.

هذا الكلام أدخل الفرحة إلى قلب الرجل ، وجعله يتخلص من بعض العبء الذي أثقله من قبل حينما كان يرفض تزويج بنات أقاربه من أبناء الريف ، فمازن خاطب نور متعلم ويسعى للعمل أستاذًا جامعياَ ، وسيشتري بيتًا في دمشق ليسكن مع نور قريباَ من أهلها، تلك الخلال يفتقدها من جاؤوا خاطبين لبنات أقاربه ، بها وبغيرها وجد أبو ياسر مخرجًا من هذا الكابوس.

اتفق مع زوجته على موعد مناسب لهم يأتي فيه أهل مازن شريطة أن يكون مازن معهم ، وبالفعل



أعلمت أم ياسر الخبر بالهاتف أم خالد التي بدورها رتبت الأمور كلها في القرية.

ولما حان اليوم المحدد جاء مازن وأهله خاطبين لنور.

تمت الخطبة بيُسر وسهولة إذ اتفق الطرفان على كل الأمور ذات الشأن بالخطبة والزواج اللاحق ، ليكون بذلك أبو نور قد ضرب بكل عرف كان قد تمسك به من قبل عرض الحائط، وبخاصة بعدما انزوى بمازن وتحادثا طويلاً ليكتشف أمامه شخصية قوية لديها خبرة بالحياة، طموحة محبة لبلدها وأهله حُبّاً لا حدود له، ما أشعره بأمان واطمئنان على أن يسلِّمه فلذة كبده ابنته الوحيدة.

بعد هذا الابتلاء من رجل عرف الحياة وخبرها وعايش عشرات الزيجات في حيه بسط شروطه أمام مازن طالبا منه إبداء رأيه. جاء رد مازن سريعًا، حيث تفاجأ الرجل بقول مازن :

- ضع ما شئت من شروط فأنا لست ممن يعترض مهما علا شأنها وصعب تحقيقها لأنني أقصد زواج عمر لا زواج مرحلة، فقد استخرت ربي قبل أن أقرر المجيء لخطبة كريمتكم نور.

- شكراً يا ولدي، ولكننا ملزمون بشرع ربنا فلا بد من شروط يوافق كلاكما عليها، فأنت لك شروط أيضًا، قلها حتى أضمِّنها العقد.

- أنا لا شروط لي إلا موافقتك ومباركتك لي ولنور، فهي عندي أغلى من كنوز الأرض، وبخاصة بعدما عرفت أسرتها.

- ولدي وفقك الله وأسعدكما على مدى الحياة لقد أثلجت صدري، سنكتب في الورق قيمة مقدم يسير غير مدفوع ومؤجل يكون ضعفه، أتوافق على ذلك؟

- كما قلت لك اكتب ما شئت.

توج لقاؤهما باتفاق شفوي على أن تكتب شروطه



خطيّاً يوم تسجيل الزواج رسمياً في المحكمة. بقي لمازن بضعة أشهر حتى ينهي خدمة العلم ما يعني أن تسجيل الزواج في المحكمة غير ممكن ، فلجأ العروسان إلى الكتّاب العرفي عن طريق إمام المسجد في حارة أبي ياسر الذي تلا بنود الاتفاق على مسامع الحاضرين ليصبح مازن ونور زوجين شرعًا.

في الجلسة نفسها تحدد موعد الفرح ، واتفق على إجراءاته ، كان من ضمنها أن يجري حفلهما في إحدى صالات دمشق ، ثم يذهبان من بعد إلى إحدى المنتجعات في إحدى المدن «فترة العسل» كما يقال.

كان مازن ينتظر ذلك اليوم الذي يجمعه ونور بفارغ الصبر ، فكلما تذكّر طول الفترة التي تفصله عن موعد الزفاف استشاط غضباً ؛ لأن معظم أيامه تلك ستكون في قطعته العسكرية ، فرصيد إجازاته لهذا العام نفد. فإن رغب في النزول إلى القرية فلن يبقى فيها أكثر من

سويعات ، وقد تكون نور خلالها في إجازة أسبوعية ما يحول من دون رؤيتها، فإن وافقت إجازة مازن الساعية وجود نور في القرية فهي يسيرة أيضًا لا تحقق طموح مازن.

مرّت الأيام بطيئة على العروسين، كانا خلالها يلتقيان لمامًا في القرية تارةً، وفي بيت أهل نور تارةً أخرى، تمكَّن كل واحد منهما خلال هذه الفترات القصيرة أن يفهم الآخر ، واتفقا على أدق التفاصيل التي ستسير حياتهما المستقبلية على منهجها. كان اللقاء الأخير مواتياَ لما قبل موعد زفافهما، حيث تمكنا خلاله من مراجعة كل صغيرة وكبيرة حتى اطمأنا أن رحلة حياتهما الجديدة ستكون مأمونة من كل جوانبها المادية والمعنوية والاجتماعية والمعيشية حتى بدء الحمل.

حلَّ اليوم المنتظر ، وعاش العروسان أحداثه لحظة بلحظة ، فرحين بما وصلا إليه بعدما أصبحا زوجين



متحررين من القيود ، فمازن سرح من الخدمة ونور أنهت السنة الدراسية ما أعطاهما وقتًا للاستمتاع بما تحقق لهما بتوفيق من الله وعونه ، ففي فترة وجيزة للغاية تمكنا من التغلب على عقد المعوقات التي تساقطت الواحدة تلو الأخرى، ما أشبها بجبل من جليد ذاب ليصبح أثرًا بعد عين ؛ لهذا كله كانا يكثران من صلاة الشكر لربهما ، ضارعين له دوام توفيقه لهما في رحلة حياتهما الجديدة، فهما لم يكونا متوقعين إنجاز ما حصل بهذه السهولة واليسر.

لم تطل فترة غيابهما في فترة الاستجمام ليعودا إلى بيت مازن في القرية ، حيث أعدوا من قبل غرفة لهما مؤقتًا، وما إن تسلّل خبر عودتهما حتى انهالت عليهما جموع المهنئين وما أكثرهم!

قضى العروسان فترة في القرية وهما يستضافان في بيوتاتها من قبل الأقارب ، ثم ألحق أسبوع القرية

بأسبوع آخر في المدنية لدى أسرة نور.

عاش العروسان أيامًا جميلة احتفي بهما احتفاء ينم عن حب جم لم يكونا يتوقعانه. فكل من حولهما فرح بهما، حتى وصل الأمر بهما أن يحسدا أنفسهما وبخاصة عندما وصلت ورقة قبول الجامعة لمازن في وظيفة معيد جامعي. كاد العروسان الجديدان يطيران من الفرح ، فبمجرد أن فضَّ مازن الظرف وقرأ المضمون خرّ ساجدًا لله وشاركته السجدة رفيقة حياته التي شعر مازن بأنها جلبت له كل جميل.

ذهب مازن برفقة نور إلى كلية الزراعة ليستكمل أوراقه الثبوتية، وليعرف موعد بدء دوامه الرسمي الذي حدد له قبل بدء العام الجامعي بفترة.

لم يمض سوى أيام على قبول مازن في الجامعة حتى حملت الصحف خبر نقل نور من تربية ريف دمشق إلى تربية المدنية.



ذهبت نور إلى التربية لمراجعتها من أجل معرفة مدرستها الجديدة، هناك التقت بإحدى الموظفات من منطقة الميدان حيث زودتها بالشواغر في مدارس حي الميدان لتختار أقربها إلى بيت أهلها.

هذه الأحداث المتوالية غيّرت حياة مازن ونور من دوام في قطعة عسكرية ومدرسة في قرية خارج دمشق إلى عمل وظيفي يجمعهما في مدينة كبيرة يحبها مازن حُبّا دخل شغاف قلبه ؛ ودفعته إلى الطلب من عمه أن يبحث لهما عن منزل قريب من مسكنه يجنبهما السكن في القرية ومعاناة الذهاب صباحًا إلى دمشق والعودة مساء. بذل أبو نور جهدا كبيراً حتى عثر على غرفتين في بيت بحي الميدان القديم. كان البيت متواضعًا يضم ثلاث غرف تعيش بإحداها صاحبته وهي امرأة عجوز تؤجر الغرفتين الباقيتين حتى تعيش من أجرهما. سكن مازن وزوجه عند المرأة العجوز وكانا يعاملانها كأم لهما.

سارت حياة العروسين في دمشق طبيعية ، فهما يتدبران أمر معيشتهما من مرتبيهما الشهري، لكن التزام مازن بجزء من مصروف أهله قد يضطره إلى الاستلاف أحيانًا من زملائه في الجامعة لدفع بقية مصاريف الشهر. هذا النهج مع الأيام فاقم حاجته وضيّق عليه سُبل الحياة على الرغم من تقاضيه مبلغًا ماليًا لقاء أبحاثه العلمية.

ذات يوم حلَّ عليه ضيف من زملائه في الكلية سابقًا، قدم من إحدى دول الخليج التي تعاقدت مع عدد من مهندسي الزراعة، فاستضافه مازن في أحد المطاعم ومن خلال أحاديثهما لمس الضيف من حديث مازن بعض المتاعب وعرف حجم معاناته فأحب أن يخدمه، فقال له : ما رأيك أن تزودني بملفك الوظيفي وأبحاثك لأقدمها لرئيس قسمي، فعسى أن تقبل ونعمل معًا، وبدأ يبسط بين يديه كم المغريات والفوائد التي سيجنيها ماليًا



وعلمياَ ومعنوياً هناك.

مضى على زواج مازن ونور ثلاث سنوات لم تحمل خلالها نور كغيرها من بنات القرية اللواتي تزوجن معها في تلك الفترة، ما جعل مازن مُحرجًا أمام تساؤلات أمه عن السبب، فكلما زار القرية أو جاءت هي زائرة إلى المدينة فاتحته بقصة الأولاد حتى أثرت فيه ودفعته هو وزوجه إلى إجراء فحوصات طبية كشفت لهما عن بعض المعوقات في الحمل.

كرّر مازن ونور فحوصاتهما المطلوبة لدى غير مختبر ليمحصا الحقيقة، ولما تأكدت لهما من غير مصدر طبي بدأت حلقات قصة جديدة تطل برأسها قوية تاركة بصماتها في كل خطوة يخطوانها، أولها مراجعة الأطباء ثم التحاليل والأشعة ، أما الأودية فحدِّث ولا حرج ليعيشا ظروفًا مادية صعبة للغاية ، ما دعاهما إلى الاستلاف ممن حولهما لقضاء حاجاتهما اليومية، بذلك

دخلا إلى نفق مظلم لم يعرفا الخروج منه، فكلما سددا مبلغًا ينفد ما في أيديهما فيضطران إلى الاستلاف من جديد، وهكذا دواليك.

هذه الدوامة دفعت مازن للكتابة إلى زميله يستحثه بالحصول له على إذن زيارة إلى تلك الدولة الخليجية ليبحث عن عمل بنفسه، ولكي تكون المعاملة كاملة في ثبوتياتها تقدَّم مازن إلى ديوان الكلية طالبًا إثبات وظيفة للحصول على موافقة لاستصدار جواز سفر.

لدى مراجعة العميد للبريد والتوقيع عليه وقع بين يديه طلب مازن القاضي بالحصول على إثبات وظيفة للحصول على جواز سفر، فاستدعاه في اليوم التالي إلى مكتبه ليعرف أسباب طلبه استصدار جواز السفر، فأخبره مازن بنيته البحث عن عمل في إحدى دول الخليج. حاول العميد ثنيه عن عزمه مقدمًا له بعض الإغراءات الممكنة من مثل رفع مكافأة الأبحاث التي



يقوم بها، وزيادة ساعات تدريسه في الكلية ما قد يسهم في رفع مكافآته المادية.

فكَّر مازن بما طرحه العميد وبحسبة سريعة وجد المردود غير كاف ؛ لأن الطبابة وحدها تذهب جل دخله ودخل زوجته الشهري ، وما تلك المكافآت إلا كمسكن لمرض استعصى على العلاج بعدما طال أمده ، فالديون تتراكم عليه والمكافأة المادية التي اقترحها العميد لا تسدد إيجار غرفتيه ، فمن أين يوفر مصاريفه الشهرية الأخرى. لكن الدفقة الشعورية التي بثها العميد بنفس مازن في هذه الأثناء حركت حبه لبلده ولاسيما قول العميد : الجامعة بحاجة للشباب أمثالك حتى يرتقوا بمستوى الكلية علمياَ ، وإضافة إلى كم التقدير الذي يكتنزه في داخله للعميد نفسه كل ذلك دفعه لطلب فرصة يومين ليفكِّر أكثر بموضوع ترك السفر.

غادر مازن الجامعة إلى البيت وفي نفسه بعض الأمل بأن تتحسن ظروفه المادية ليتمكن من تسديد حساب البقال الذي يحاصره بنظراته ، فكلما خرج مازن إلى عمله أو عاد منه طالعه البقال بنظرة مملوءة بالريبة والشك ما يؤرقه ويضعه في حرج شديد لم يعشه من قبل ؛ لهذا قرر أن يخلص نفسه من هذه المعاناة مجرد أن يتقاضى الزيادة التي عرضها عليه العميد.

كان مازن يسير في الشارع الموصل إلى بيته متوجسًا من رؤية البقال الذي يطالعه بنظراته الحادة والناطقة باللوم بل بالشك من مصداقية مازن، التي تآكلت منذ بدأ يتأخر في تسديد ديونه. هربت نظرة كسيرة من عين مازن إلى البقالة فكانت المفاجأة التي لم يصدقها مازن للوهلة الأولى أن تكون البقالة مغلقة ، فأعاد النظر والخوف يسربله بألا تصدق نظرته الأولى، فلما تأكد من إغلاقها تعجب، فمنذ سكنه في الحارة والبقالة لا تقفل



أبوابها إلا بعد منتصف الليل ، ولتعيد فتحها مع السادسة صباحًا.

دعا الله ألا يصيب البقال مكروه، فالرجل على الرغم من نظراته الغريبة كما يراها مازن إلا أنه صاحب حق وله فضل على أبناء الحي وبخاصة المعسرين أمثاله.

دخل البيت مسرعًا ليطمئن على أخبار نور ، والتي حملت له خبرًا مفرحًا هذا اليوم مفاده ، أن التحليل الأولي الذي أجرته يشير إلى بداية حمل. حمد لله هذه المنة، واعتبرها فأل خير وبخاصة أنها جاءت وقرار العميد بزيادة مكافأتي فقال : يا نور ، رزقة الحمل إن ثبت - بمشيئة الباري - وصلته قبل مولده ، وحدثها بالتفصيل عما جرى بينه وبين عميد الكلية. فحمدت لله هذا العطاء.

تناولا طعام الغداء ولما أنهى مازن طعامه دخل إلى سريره ليأخذ قسطًا من الراحة، محاولاً الهروب إلى النوم ليخلص من كم الهواجس التي تنتابه منذ وقع فريسة

الديون.

نهض من قيلولته لتنتزع منه الفرحة التي ربما كانت تائهة، فجاءت على ما يبدو إليه خطأ، حيث أخبرته نور أن صاحبة البيت لن تجدد لهما عقد الإيجار إلا بزيادة أجرة الغرفتين في حدود الخمسين في المئة، ما يعني أن زيادة العميد بالكاد تغطي هذه الزيادة. ليرجع مازن إلى المربع الأول، معاناة بل قل : شبه فاقة، فالحمل لا يعني توقف الأدوية ومراجعة الأطباء ودفع مصاريفهما.

تعكر صفو مازن واعتكف في البيت يفكر بحل يخرجه من معاناته فلم يجد مخرجًا إلا الاغتراب وترك البلد التي أحبها أكثر من حبه نفسه... خواطر تتزاحم على ذهن مازن تزيد من ارتباكه وقلقه، وقلة حيلته ما يدفعه إلى لوم زميله لتباطئه في إرسال دعوة له ليذهب إلى البلد الخليجي عساه ينقذه من كوابيس الديون وهموم الحياة.



عاش مازن أيامًا صعبة كان البلسم لتلك المعاناة كلها ثبات حمل نور، فهو بصيص الأمل الوحيد الذي أضاء له جزءًا من النفق المظلم، وأعاد إليه بعض شآبيب الأمل المشتتة في كل اتجاه، مبعدًا عن قلبه كل ما غرسه فيها من حب للأرض التي نشأ عليها وزاد عليها حب دمشق المدينة بل سوريا البلد، ففي عرفه أن التمسك بالمبدأ يعني البقاء في الوطن مهما ادلهمت الأجواء وساءت الأحوال، فما الفرق بينه وبين غيره إن ترك وطنه وقت الشدة ، ففي الرخاء كلنا يحب وطنه ، لكن المعدن الأصيل يظهر في الكرب ، والحب الحقيقي يعبر عنه بالتضحية والتخلي عن الإغراءات الممنوحة مهما كانت في المغترب. بمثل هذه الأحاديث كانت تعمّر جلسات مازن مع زملائه فينقسمون بين مؤيد لموقفه في تحمل المعاناة خدمة للوطن ، وآخر يرى أن وطن الإنسان الحقيقي هو الذي يؤمن له أمنه النفسي والمادي.

لم يطل انتظار مازن حتى وصله كتاب من صديقه في البلد الخليجي يزف فيه خبر قبوله في الوظيفة التي تقدم لها ، وسيقوم بالإجراءات اللازمة لاستصدار فيزة دخول للبلاد.

هذا الخبر كان مفرحًا جدًا لمازن في البداية لأنه يتخيّل أنه سيخلصه من كل الظروف المعيشية التي لحقت به وبزوجه ، فخلال سنة كما أخبره صديقه سيتمكن من سداد ديونه التي كانت تؤرقه ؛ لأنه لم يعتد عليها من قبل.

أخبر مازن زوجه بمضمون الكتاب ففرحت به، وبقيا تلك الليلة يتبادلان الأحاديث كأيام زواجهما الأولى فرحين بما سيكون.

في اليوم التالي ذهب مازن للجامعة وأخبر بعض زملائه الذين بدورهم أخبروا العميد الذي استدعى مازن إلى مكتبه، وحاول جاهدا أن ينزع فكرة السفر من رأسه



لكن مازن مصرّ عليها، فهو يراها المخرج الوحيد لكل ما يعانيه ، فالأيام ستحمل له مولودًا جديدًا يحتاج إلى الكثير من النفقات فمن أين سيوفرها؟ لذلك تسابقت إلى ذهن مازن المنهك وفود الحاجات مصورة له أهمية السفر، فهو مصدر النجاة الوحيد. بالمقابل كان يسير في ميدان تفكيره بقايا من شتات عاطفة كادت تضمر بل وتتلاشى نهائيَاً ، لكن تأصلها في شغاف قلبه حرّكها لتصارع الوافد الجديد كي يعيش مازن معاناة من لون مختلف.

بدأت أبحاث مازن في الكلية تؤتي أكلها ، وينتشر خبرها، وتطلب منه الكلية نُسخًا عنها لإصدارها بعدما ثبت جدواها في ثرى أرض الغوطة الجميلة ، فتهافتت عليه برقيات التهنئة من كليات الزراعة في سوريا ما رفع أسهم الوافد الجديد الذي تصدى لفكرة السفر لدى مازن، وكاد يبز كل مغريات السفر، وجعل مازن يوميَاً

يراجع مواقفه لتهيمن على مناظراته مع نفسه نتائج أبحاثه ، وردة فعل كليات الزراعة عليها ، ما دعاه إلى أخذ ورقة ليسطر عليها كتابه الذي يعتذر به لزميله عن عدم سفره ، لكن أصابعه كلما خط كلمة ارتجفت وطلبت إليه عاطفته التريث على الأقل إلى نهاية الأسبوع.

في هذا الوضع الفكري والنفسي المربك سمع ذات يوم في نشرات الأخبار عن شخص في بلدة تونسية يصب على جسمه البنزين ثم يشعل به النار التي التهمته ليكون شرارة الربيع العربي كما سُمي. عرف مازن من الصحف وغيرها من وسائل الإعلام أن الفاقة دفعت هذا الشاب بو عزيزي إلى فعلته التي يرفضها دينيا الحنيف. هذه الحادثة ألهبت الشعب التونسي الذي ثار وتمكن من إجبار رئيسه على الهرب.

• • • •



الفصل الثالث

حادثة بوعزيزي جعلت مازن بحسه الوطني، متمنياَ على حكومة بلاده أن تبدأ إصلاحًا يبعدها عن رياح التغيير التي هبّت بسرعة ووصلت إلى الجزائر، ومن ثم مصر واليمن وليبيا، فمازن بعقله الكبير توقع أن تصل الرياح إلى سوريا. كم مرة جالس أصحابه فكانت جُلُّ أحاديثهم تنصبّ على أحداث البلاد العربية التي في لحظة ما ستصل إلى سوريا، وقد تعزَّز ذلك بعد إجبار الرئيس حسني مبارك على التنحي، فقد رأى مازن فيه نهاية الشك بأن الشعب السوري سيبقى مستكينًا إن لم تحدث إصلاحات حقيقية.

بدفاعه عن الوضع السوري كان مازن من دُعاة الإصلاح ولو طالت فترته حتى لا تتعرض البلاد للخراب،



وشاء القدر أن تقع أحداث درعا وما رافقها من لغط إلا أن مازن باق على رأيه متمسك بأهمية الإصلاح وبضرورته، لكن معالجة الأحداث في درعا بدأت عكس ما تمناه، فسرعان ما امتد اللهيب إلى مناطق أخرى شاهد فيها مازن كيف تتعامل قوات الجيش وحفظ النظام مع من يتظاهر، فكلما جاء صباحًا إلى الكلية سمع أخبارًا جديدة بعضها صادق وبعضها فيه مبالغة ومع ذلك بقي مازن على موقفه حتى الشهر الثالث ينادي بأهمية الإصلاح لتجنيب البلد الدمار.

أما بالنسبة إلى نور فقد مضى على حملها حتى الآن ثمانية أشهر. فالأسرة في الميدان والقرية تنتظر قدوم المولود الجديد بفارغ الصبر، ولما كانت الظروف غير طبيعية في دمشق بسبب المظاهرات ثم المداهمات الأمنية لبعض الناشطين لجأ أحد الملاحقين إلى بيت مازن متواريًا، لكن عينًا ما شاهدته فأخبرت قوات الأمن التي

جاءت ليلاً لمداهمة المنزل.

سمع مازن طرقًا شديدًا على الباب، فخرج مسرعًا إلى بهو البيت ليفتح الباب ، لكنه تفاجأ برجال الأمن يحطمون الباب الذي لم يقو على تحمل ضرباتهم بسبب قِدمه ، ثم دخلوا ليلقوا القبض عليه أولاً ، ومن بعد فتشوا البيت رُكنًا رُكنًا من دون أي اعتبار لحُرمة أهل المنزل بحثًا عن المطلوب.

هذا الحدث جعل مازن مُدانًا للأمن فهو يتستّر على رجل متآمر على دولة المقاومة والممانعة.

سيق الرجلان وبدأت التحقيقات معهما وباستخدام أقسى صنوف التعذيب للحصول على المعلومات التي يرغب بها رجال التحقيق لكي يثبّتوا الإدانة لمن اعتقل.

شاهد مازن حالات في معتقله ضاعفت حُب سوريا في نفسه. فكم من معتقل عُذِّب وبقي مصرّا على أن حُبه لسوريا هو الذي دفعه للخروج في المظاهرات



لتكون بلده حُرة كريمة، هذه المشاهد كانت ترفع من معنوياته وتزيد من حبه لبلده ليكون حُبّا على حب.

ذات يوم تمكن أحد محبيه من الوصول إلى أحد سجّانيه، فبعث لمازن رسالة شفوية يطمئنه بها عن أسرته، فردَّ مازن عليه قائلاً: أود أن تقول له: عندما تضع نور مولودها، إن كان بنتًا فلتسمها «سوريا»، وإن كان ولدًا فلتسمه «عاشق».

أخيراً وضعت نور طفلتها وسمتها سوريا كما طلب أبوها، ولما ذهب جدُّ الطفلة لتسجيلها في السجل المدني حاول الموظف ثنيه عن الاسم، لكن الجدّ أصرّ وقال للموظف: هل لديك مانع قانوني. لم يجب الموظف بل سجّل الطفلة باسم «سوريا».

كان أبوها السجين يرى مستقبل سوريا الآتي سيكون عظيمًا لا حدود له، فهو المحب لها حتى دخل حبها شغاف القلب؛ لذلك آثر البقاء فيها على الرغم من كل

المغريات. سرح ذهنه في فسحة تذكر ليأتيه حدث السفر الذي لو حصل لجنَّبه هذا الاعتقال، فتذكر أبياتًا من الشعر، وأخذ يرددها للشاعر القروي رشيد سليم خوري الذي يحاول فيها ثني نفسه عن السفر التي تغريه بالغربة، لكن عقله كان يكبح جماحها، لكنه أخيراً استسلم وهاجر.

رأى مازن في تصوير الشاعر لنفسه ما يشبه حاله، فكرّر الأبيات غير مرة من دون أن ينسى ما كان يخطِّط له لو كان خارج المعتقل ليلة ذهاب نور إلى المستشفى لتضع رضيعها الأول، متخيلاً وقوفه أمام غرفة العمليات ينتظر بفارغ الصبر خبراً ساراً يحمل له خلاص شريكة حياته من هذا الكرب العظيم، ولكم ستكون فرحته لدى سماعه صوت المولود للمرة الأولى، ثم نظره إلى وجه من أحب وهي تبادله النظرات لتبقى لغة العيون في مثل هذا المقام أبلغ من كل لغات العالم، فالقلب



يفهم القلب ويتحسس نبضاته ؛ لأنه يعيد صداها من قلبه أي المتلقي، ولكي يخلص مازن من عبء بعده عن نور وضياع تلك الصورة أعاد الأبيات مخاطباً نفسه بصوت مسموع :

نصحتُكِ يا نفس لا تطمعي!

وقلتُ: حذار فلم تسمعي

فإن كنتِ تستسهلين الودا ع

كما تدعين ، إذًا ودَّعي

رزمتُ الثياب فلم تحجمين؟

ولم ذا ارتعاشكِ في أضلعي؟

ولما بدا لكِ عزمي قنعتِ

وهيهات يجديكِ أن تقنعي

خرجتُ أجرّك جرَّ الكسيح

تئنّين في صدري الموجعِ!

كفاكِ اضطرابًا كصدر المحيط

قفي حيث أنتِ ولا تجزعي

بعد أن أسمع مازن نفسه الأبيات أثنى على الشاعر رشيد سليم خوري المعروف بـ"القروي" قائلاً : لقد أحسنت صُنعًا فيما نظمت أيها القروي إن شعرك هذا إنساني بامتياز، حيث يجد الإنسان فيه نفسه.

إلا أن معاناة مازن المتفاقمة يومًا بعد يوم لو اجتمعت كل حقن الدنيا لن تنسيه ما فيها تجاه بلده أولاً التي يراها أمام ناظريه تسعى برجليها إلى دمار سيعيدها عشرات المرات إلى الوراء ، فها هي بلدته الصغيرة في الغوطة تنضم إلى جموع المتظاهرين يوميا ما يعني أن أهله في القرية سيتعرضون للمداهمة كما حصل معه في دمشق ، فبدأ يدعو الله أن يحفظهم من كل مكروه.



ذات صباح جاء أحد الحُرّاس إلى زنزانته ثم أخذه إلى مكتب المسؤول الذي قال لمازن : ستعرض هذا اليوم على القاضي لينظر في قضيتك ، فاذهب وانتظر حتى يكتمل عقد أمثالك.

فكر مازن بقول مسؤول المعتقل «قضيتك» ليقول في نفسه : والله يا مازن بعد كل عصاميتك تصبح من أصحاب السوابق ، فلك قضية سينظر بها ، ماذا سأقول مستقبلاً لابنتي سوريا عندما تكبر؟

جاء بعض الموقوفين، ثم رُبط على عيونهم وسِير بهم حتى أودعوا حافلة سارت بهم قرابة الساعة ، ثم أنزلوا وهم محجوبو الرؤية حتى دخلوا قاعة المحكمة.

نودي مازن فدخل على القاضي الذي قرأ على مسامعه اتهامات النيابة طالباَ منه الاعتذار والتوبة ، فسيرته التي وصلت للمحكمة من عميد الكلية كانت سبباَ وجيهًا لإطلاق سراحه شريطة توقيعه على تعهد ألا

يشارك في المظاهرات أو يدعو إليها أو يساعد من يخرج بها ، بل يخبر رجال حفظ النظام بكل ما يعكر الصفو والاستقرار في مكان سكناه أو وظيفته.

وقّع مازن ليخلص من معاناة كادت تفقده صوابه وتمسح كل ما اكتنزه في ذهنه من حب لبلده، ولما خرج من المحكمة أعطاه الضابط مبلغًا ليذهب به إلى مكان سكنه ، لكن مازن رفض أخذه قائلاً : المكان قريب سأذهب مشيَاً.

سار في الطريق نحو منزله تائهًا يفكِّر بالمفاجأة عندما ستراه زوجه وقد تغيرت سحنته بل شكله بعد بضعة أشهر وهو بعيد عنها ، كما كان قلبه يهفو لابنته الأولى التي رُزق بها ولم يرها من قبل كيف ستكون أهي أجمل أم نور؟

كثير من الخواطر دارت في نفسه، وأخيراَ وصل البيت. قرع الباب وتوارى جانبَا هادفًا تجنيب نور رؤيته تلك،



بل رغب في إسماعها صوته الذي لم يتغير بعد ، لكن المرأة العجوز صاحبة الدار هي من فتحت، فنظرت إلى مازن مستغربة كأنها لا تعلم سجنه. سلَّم مازن، لتجيبه المرأة بسؤال : هل عدتم من الضيعة؟ أدرك مازن أن زوجته في القرية فأجابها : أنا عدت.

خشي مازن دخول البيت من أسئلة المرأة أن تحاصره فقرّر التوجه إلى بيت عمه غير البعيد ليعرف الخبر اليقين. ولما وصله فتحت له حماته. سلّم عليها ودخل ، فحمدت لله سلامته وأخبرته أن نور منذ أسبوعين ذهبت إلى زيارة أمه بعدما أرسلت لها راغبة في رؤية حفيدتها، لكن توعك الجدة الصحي دفع نور إلى البقاء قريبة منها إضافة إلى بقية المخاطر التي تكتنف السفر من القرية إلى دمشق فكثيراً ما يحصل قتال بين الثوار والجيش النظامي.

طلبت حماته إليه أن يستحم ويغير ملابسه ليأخذ قسطًا من الراحة ، وبالفعل امتثل لطلبها ، وتوجه لينام

قليلاً قبل أن يأتي عمه من متجره مساء. حضر العم ومازن يغط في نوم عميق، فأخبرت المرأة زوجها بانفراج كربة من كرب مازن ، ولمَّا أفاق مازن تعانق الرجلان عناق مشتاق لمشتاق، فمازن قد دخل قلب عمه الذي أحبه كولده ودارت بينهما أحاديث عدة ، من أهمها خبر جاء على القنوات الإخبارية يفيد بأن الثوار احتجزوا حافلة مملوءة بالحرس الثوري على طريق مطار دمشق الدولي. هذا الحدث بالتأكيد سيشدد الحصار على الغوطة أكثر من ذي قبل وسيعرضها للمداهمات والقصف أيضًا بحجة الإرهاب، في ظل هذه الأوضاع لن يتمكن مازن من الذهاب إلى قريته وكذلك نور لن تتمكن من القدوم إلى دمشق.

تعكر صفو مازن كثيرا لدى سماعه هذه الأخبار من عمه ، لكن المؤكد والمطلوب منه أن يلتحق من يوم غد بعمله في الكلية. كان أكثر ما يزعج مازن ويزيد الطينة بلة تعطل الاتصالات بين دمشق والريف ما يحول دون



تواصل مازن مع أفراد أسرته للاطمئنان عليهم وبخاصة أمه المريضة، وابنته وزوجه. ظن مازن أن الأيام الصعبة لن تستمر فلا بد للكرب من نهاية، لكن الحقيقة كانت تجري عكس إرادته، فكلما مرّ يوم تعقدت أمور مازن، فشوقه لأسرته فاق كل تحمل، فكم مرة قرّر المغامرة والذهاب إلى قريته متسللاً، لكنه يتراجع في نهاية الأمر خوفًا من أن يُقتل ثم يُتهم بالإرهاب ما يسبب لأسرته وابنته الكثير من المشكلات لاحقًا.

انصبّ اهتمام الجيش النظامي في تلك الفترة على الوصول للمحتجزين، فزاد من تحكمه بكل المنافذ، فلا يتمكن أحد من الدخول إلى الغوطة أو الخروج منها إلا عبر الحواجز، وحياة العابر معرضة للقنص أو الخطف... كما انتشر المخبرون والدوريات في الغوطة لكشف خيط يوصل إلى المخطوفين. لذلك كانت الدنيا مقلوبة في كل القرى بالغوطة.

التحق مازن بعمله وهو مشتت الذهن كارهًا الحياة، بعدما سُرقت منه ومن غيره البسمة، وصار همه معرفة مجرد خبر عن أسرته السجينة، ومثلها كل سكان الغوطة الشرقية والغربية ، لقد تحول مكان الأنس إلى مكان مقت، فكلما مرّ يوم فقد مازن أمله في أن تصلح الأمور، فالنفوس عمرها الحقد فلا يخلو بيت من شهيد أو فقيد أو جريح ، إضافة للتضييق الحاصل في كل خروج أو دخول لمن يحتاجه.

ذات مساء جاءت الكهرباء خلسة، ففتح مازن التلفاز ليشاهد على إحدى القنوات السورية لقاء للرئيس الأسد يتكلم به عن الوطنية وغيرها، فأخذ ورقة وكتب عليها ملحوظاته حول إجابات الرئيس، لكن النعاس أخذه فلم يستيقظ إلا فجراً فقام للصلاة والورقة متروكة في مكانها. ولما خرج متوجهًا إلى عمله شاهدها في مكانها فأخذها ثم دسها في جيبه الداخلي.



كان لمازن صديق في العمل يثق به ثقة عمياء فأحب أن يخفف عن نفسه ويسمعه رأيه في الأحداث علَّه يُسمعه خبراً مفرحًا أو يستنتج عكس ما توصل له من رأي حول اللقاء، فقال مازن لصديقه :

- هل استمعت أمس إلى لقاء الرئيس على إحدى القنوات؟

فأجاب الرجل :

- نعم.

- ما رأيك فيما قال؟

- كالعادة لا جديد، فالأمور نحو التأزيم.

في هذه اللحظة دخل الفراش عليهما وزميل مازن يقول الأمور نحو التأزيم ، فما كان من هذا المخبر إلا الذهاب إلى مسؤول الأمن ليشي بما سمع. وجد مسؤول الأمن بهذا الكلام صيدًا سمينًا، مازن وصاحبه يتحدثان بالسياسة منتقدين كلام الرئيس.

اتصل مسؤول الأمن بمفرزة المخابرات خارج الحرم الجامعي طالباَ حضور بعض عناصرها إلى مبنى الكلية الإداري ، كما اتصل بمكتب العميد فلم يرد أحد على اتصاله ، كرّر الاتصال ، ولكن من دون جدوى. كلّم أحد موظفي الديوان طالباَ إليه أن يسهل مهمة مفرزة الأمن حتى تدخل الحرم الجامعي. لم يكن الموظف في الديوان على معرفة بالتصرف في مثل هذه الأمور ، لكنه سرعان ما أعطى التعليمات للمسؤول على البوابة بالسماح لعناصر المفرزة في الدخول.

دخل رئيس المفرزة وبصحبته ثلاثة عناصر البوابة الرئيسة للحرم الجامعي فوجدوا المسؤول الأمني بانتظارهم ، ليقودهم مباشرة إلى مكتب مازن وزميله. دخل رئيس المفرزة الغرفة بدون استئذان ثم قال لمازن وزميله : تفضلا معنا.

رد مازن : إلى أين نتفضل معكم؟



- ستعرف بعد قليل.

لم يرغب مازن في تعطيل المهمة حتى لا يُتهم بقضية جديدة ، بل أومأ لصاحبه وانقادا لهم. فساروا بهما إلى غرفة المسؤول الأمني الذي عاود الاتصال بعميد الكلية للإخبار بالحدث ، لكنه لم يفلح ، فاضطر أن يترك له رسالة مفادها أن يتصل السيد العميد بمكتب مسؤول الأمن مجرد حضوره إلى مكتبه.

أجري مع الرجلين تحقيق سريع عرفا من خلاله أنهما متهمان بانتقاد تصريحات السيد الرئيس لوكالة سانا الرسمية في مكان عمل رسمي وخلال العمل الرسمي. هذا التصرف من قِبلهما يعاقب عليه القانون.

حاول مازن وصديقه التنصل من هذه التهمة وأعادا ما قالا بالحرف على مسمع رئيس المفرزة، ولكن أنَّى له ولأمثاله أن يسمعوا؟ فلو سمعوا من الناس الحقيقة لما وصلت البلاد والعباد إلى هذا الدرك من الانهيار.

أعلم رئيس المفرزة الرجلين بأنهما موقوفان بتهمة «انتقاد تصريحات الرئيس في مكان عمل رسمي ووقت العمل الرسمي»

أصرّ مازن على إنكاره لهذه التهمة ؛ لأن ما حصل لم يكن بهذه الصورة مطلقًا ، وطلب ممن يجري معهما التحقيق أن يحضر لهما محامياً.

زجر وحيد زمانه رئيس المفرزة مازن قائلاً:

- يا حبيب أمك تطلب محامياَ ، أتخال نفسك في سويسرا؟

- نعم لسنا في سويسرا ، لكننا في سوريا بلد الحرية فوسائل الإعلام صباح مساء منذ تسلم القائد الخالد مقاليد الحكم ، وهي تحدثنا عن الحرية ، أفلا يجوز لنا أن ننبس بابنة شفة.

- أراك وقحًا ، فكأنك تستهجن ما أقول. هذه الفلسفة اتركها ، فستبقى أنت وصاحبك لدينا حتى نحوّلكما



للقضاء.

- أي قضاء تعني؟

- صاحبي كن حاذقًا واعترف وسأحولك مباشرة.

- بم أعترف ؟ فأنا لم ارتكب أي جرم لأعترف به؟

- لا تكثر الكلام... عنصر: غط لهما عينيهما.

ثم قُيِّد مازن وصاحبه أمام الطلبة في ساحة الكلية غير مهتمين بردَّة فعل الطلاب ، بل كان هدفهم من فعلهم الشنيع هذا بعث الرعب والهلع بإرسال رسالة لغيرهما ، فالأساتذة يُعاملون بهذا الشكل. فانتبه أيها الطالب المسكين.

سار حديث مازن وزميله على كل لسان في الكلية ولاسيما لحظة سوقهما معميين أمام الطلاب يقودهما أحد العناصر حتى وصلا سيارة المفرزة التي أقلتهما إلى مكان احتجاز جديد. هناك طُلب منهما تسليم ما

بحوزتهما من حاجات كأمانات.

بدأ كل منهما يستخرج ما معه من محفظة وأوراق وهاتف وغيرها,لكن مازن المسكين المسكون بخوف لم يشعر به من قبل باغته هاجس يقول له : يا مسكين لن ترى ابنتك سوريا إلا على الورق ، ما جعله يتأخر في إخراج ما في جيبه ، فنهره أحد العناصر قائلاً : أخرج ما في جيوبك. أخذ المسكين يتلمس ما في جيبه ولم يكن يتوقع أن تكون ورقة أمس معه ، لكن هول المفاجأة بالمداهمة السريعة التي حصلت لهما أنسته كل شيء حتى ما في جيبه ، والذي كان يظنه وسيلة ستخفف من كم المعاناة التي يعيشها عندما يفرغه أمام صديقه. بتلك الورقة أسقط في يده وستكون أكبر دليل على انتقاده لتصريحات الرئيس. إن لم يسلمها فهو يخشى أن يُفتش فيَعثر عليها لديه، فتُوجه إليه تهمة جديدة. ظهر عليه ارتباك وهو يمد يده إلى جيبه ثم يخرجها فارغة ما



لفت أحدهم إلى تصرفه فقال لمازن حازمًا :

- أخرج ما في جيبك، ألديك سلاح غير مرخص ؟

- أي سلاح ؟

تقدم منه أحد العناصر ومد يده إلى جيبه مخرجًا ورقة مطوية ثم سلمها رئيس المفرزة الذي قرأ سطريها الأولين ونظر إلى مازن قائلاً :

- ألا تزال مُنكرًا انتقادك لتصريحات السيد الرئيس؟ لمن هذه الورقة أليست لك وبخط يدك؟ كما أخرج العنصر من الجيب الأخرى صورة فوتوغرافية لابنته سوريا.

سأل رئيس المفرزة مازن :

- ولمن هذه الصورة يا بطل؟

- إنها صورة رضيعتي التي وُلدت قبل ما يزيد عن السنة ولم أرها إلا كما رأيتها أنت.

- هل هاجرت خارج البلاد لتسكن في مخيمات تركية

المقامة قبل أحداث سوريا؟

- سيدي إنها تعيش في الغوطة محاصرة هناك مع أمها وجدتها المريضة.

- محاصرة من قبل الإرهابين.

لم ينطق مازن بحرف، فما كان من سيد عصره إلا أن هزَّ رأسه وضمها مع الورقة إلى محضر التحقيق الأولي ليرسل به إلى الفرع التابع له في نهاية الدوام.

رجا مازن قائد المفرزة أن يعطيه صورة ابنته فرفض، كان رفضه بمثابة سهم ضرب فؤاده المكلوم ، فقال في نفسه : لقد حُرمتُ رؤيتكِ من قُرب وضمك إلى صدري كأي أب مع ابنته، وها أنا اليوم أحرم رؤيتك عبر صورة فوتوغرافية ، ما أتعسكَ وما أقل حيلتك يا مازن! هل كنت تتوقع أن تتعامل في بلد أحببتها أكثر من حب الجبان للحياة بهذه الصورة!

كتم آلامه والدمع ينسل على وجنيته وهو كسير



مهيض الجناح لا حول له ولا قوة ، وأستذكر مباشرة الورقة اللعينة التي ستسهم في الحيلولة من دون رؤيته لسوريا الطفلة من قرب. في الورقة المشؤومة تلك صب مازن رأيه بصراحة بما سمعه من تصريحات الرئيس لتغدو الدليل القاطع على معارضته للشعب في اختياره للسيد الرئيس. هذا الاتهام كفيل وحده أن يرتب على مازن وزميله الذي يجاريه ، ولم يبلغ عنه تبعات لا حدود لها. أضف إليه تعهداته السابقة المأخوذة عليه منذ اعتقاله الأول ، في عرف الأمن هو من أصحاب السوابق.

ضمّن مازن الورقة التي تعتبر دليل إدانته بعض ملحوظاته ليخفف عن نفسه ويسلي بها عن همومه التي تتدافع عليه لكنها أي الورقة تلك كانت خصمًا له، لهذا أخذ يستعرض ما كتب فيها جراء رؤيته شريطًا في أسفل إحدى الشاشات تنقل تصريحًا للرئيس السوري

لوكالة الأخبار السورية الرسمية "سانا" يقول فيه بأنه واثق من النصر في هذه المعركة.

هذا الكلام المدون في قصاصة الورق ضيّع مازن في أقبية ودهاليز كثيرة ، فتاهت أخباره وتشتت الآمال بخلاصه قريباَ أمام نور التي رأت أن تخلص له في تربيتها ابنتها التي قاربت السنتين، لكن سوريا الطفلة تشعر من ينظر إليها أو يحادثها على الرغم من قلة كلماتها أنها في عامها الرابع.

محاولات نور الخروج من الحصار في الغوطة التي اشتدت عليها وطأته لم تفلح ، كان جُلّ همها أن تُخرج ابنتها من القرية إلى المدينة لتعيش في كنف جدها فمرتبها من الوزارة توقف بسبب عدم التحاقها بمدرستها في دمشق. وصاحبة غرفتيها امرأة عجوز تعيش على ريع الغرفتين قد طلبت من أهل نور دفع الإيجار أو ترك الغرفتين حتى تؤجرهما. أخذ أهل نور بعض الأثاث



وتصرفوا بالباقي. لكن وطأة الحصار اشتدت أكثر من ذي قبل على الغوطة خصوصًا عندما استدعى النظام قوات أكثر عساها تتمكن من الوصول إلى الثوار ثم طردهم من قلب الغوطة لما يشكلونه من خطر فعلي على العاصمة. رُسمت لهذا الشأن خطط لابد من تنفيذها مهما كلف ذلك النظام من ثمن.

كانت أيام رمضان تقترب من نهايتها لكن عطاء أهل الخير مستمر وباق إلى يوم الدين، حيث تمكنت اللجنة الخيرية في قرية مازن من جمع بعض الهدايا والألعاب فرغبت في أن تخفف عن الأطفال جزءاَ من معاناتهم فقررت إقامة احتفال لهم ولذويهم في حديقة المدرسة الريفية بالقرية ، ولكي تتغلب على غياب الكهرباء جمعت من الأهالي بعض المولدات الكهربية لاستخدامها في تنوير ساحة الاحتفال.

نور وابنتها سوريا من المدعوين لما يمثله مازن سليل الأسر المجاهدة في القرية، إضافة إلى خدماته التي كان يقدمها لأبناء قريته عندما يطلبونه، فلم يقصر قط في خدمة طلبت منه ؛ لذلك رد جزء من هذا الجميل يستدعي احتضان كريمته سوريا لتكون نجمة الاحتفال.

أمام هذا الموقف فكرت نور في لباس سوريا فلم تجد أجمل من إلباسها علم الثورة لتكون بين الحضور متميزة كأبيها المهندس المتميز، فخاطت بيديها فستانًا يمثل علم الثورة السورية، فمن الأمام اختارت قماشًا لونه أخضر، ومن الخلف كان اللون أبيض، أما اليدان فقد جعلتهما نور من قماش لونه أحمر، أما غطاء الرأس فكان أسود.

بدأ في مساء يوم ٢٠١٣/٨/٢٠م توافد المدعوّين إلى حديقة المدرسة ومنهم نور التي أقبلت مصطحبة ابنتها سوريا الصغيرة، وهي ترتدي علم الثورة ما لفت إليها الأنظار وغدت مهوى النفوس، فكل من شاهدها دعا لها



الله أن يحميها ويحفظ لها أبوها حتى يرعاها فتكون بحقٍّ ثمرة حبه الأوحد «سوريا البلد» فبُعد سوريا عن أبيها أثار عواطف الناس، فالبنت لم تر أباها ولا هو رآها أبدا ما أسهم في استجرار عطف الجمهور باتجاه سوريا الطفلة التي تذكرهم بسوريا بلدهم النازف.

بدأ الاحتفال وأظهرت سوريا ببراءتها وحركاتها كغيرها من الأطفال ما أدهش الحضور وخاصة عندما يهتفون «سوريا حُرة ، الشعب السوري واحد»... هذا الهتاف حمّس الحضور ودفعهم للمشاركة مع الأطفال في الدعاء لسوريا البلد أن تستقر وتعيش حُرة أبية.

في نهاية الاحتفال قدم أهل الخير - رُعاة الحفل - مجموعة من الدمى للأطفال ، ليكون نصيب سوريا الطفلة دمية كبيرة الحجم بعض الشيء تكاد تقاربها طولاً. أخذتها سوريا ثم ضمتها إلى صدرها وفرحت بها فرحًا كبيراً وبخاصة عندما حاولت فتح الشنطة المرفقة بها لتخرج مشطًا ثم راحت تمشط شعر الدمية الأشقر.

انفض الجمع فرحين على الرغم من المآسي التي يكابدونها، لكن نجم الاحتفال كان على كل لسان: نور وسوريا الطفلة المؤنسة ذات الثغر المفتر دائمًا، فكل ما تبديه محبب للناس ، سبحان الله غارس القبول في النفوس.

هجع الجميع في بيوتهم، ومنهم نور وابنتها سوريا التي لم تكن راغبة في النوم على الرغم من محاولات نور أن تنيمها ولجوئها إلى قص القصص على مسامعها، إلا أن سوريا مشغولة بالدمية التي اضجعتها إلى جانبها بعد ان وسدتها يدها ، ووضعت يدها الأخرى فوقها خوف أخذها منها، ومنتظرة الصباح الباكر لتريها جدتها التي كانت تغط في نوم عميق فلم تسمح نور لسوريا بإيقاظها، وقالت لها : صباحًا سوف ترينها جدتك، أما الآن فعروسك نعست تود النوم فما رأيك أن ننام جميعًا؟



أطفأت الشمعة نور وسلمت نفسها للنوم وكذلك سوريا، لكن يد البطش واللؤم والحقد والإجرام لن تقف عند حد في جرائمها ، قررت القضاء على كل حياة في الغوطة الإنسان والحيوان مستخدمة أكثر الأسلحة فتكًا بعد النووي، ففي قرابة الساعة الثانية ليلاً سُمِع انفجار، وبعد بضع دقائق سُمِع انفجار آخر ، لتعمَّ الأفق ريح كريهة لم يعرف أحد مبعثها ملأت الجو ما دفع بالناس إلى الخروج من بيوتهم، الكل يسأل عن سر هذه الرائحة الكريهة، ليأتي الجواب من الأطفال الذين لم يتمكنوا من تحملها فنور ترى بين يديها سوريا الطفلة تتنفس بصعوبة وترتعش ثم تخرج إفرازات من فمها ومع ذلك لا تزال حاضنة الدمية إلى صدرها. حاولت نور نزعها منها، لكنها بقيت متمسكة بها، فلم تدرِ نور أن سوريا الطفلة في غيبوبة ، فحاولت إيقاظها ، لكنها فشلت ، وعرفت أن الطفلة فقدت وعيها، فطار صواب المسكينة وهرعت إلى غرفة حماتها لتخبرها ، فنادتها فلم تجب

حركتها ولم تدر ما أصابها، فهرعت ثانيةً إلى ابنتها، لكنها سقطت أرضًا ولم تصح إلا بعد ساعات. سألت عن سوريا من حولها فاستهجن الناس سؤالها، أتسأل عن سوريا، ولا تسأل عن أهلها ؟... كرّرت السؤال، لكن من غير إجابة.

ذوت سوريا الطفلة كشمعة تحترق، لتنير لمن بعدها طريق العبور إلى الحرية، حاملة همّ الملايين المشردين في بقاع الأرض يعانون معاناة نور ويطرحون السؤال: أين سوريا الحرة الكريمة ؟ في لعبة الأمم التي لا يهمها دم الشعب السوري، فكل معاناته وتضحياته اختزلت في ضربة الكيماوي الذي سرق سوريا الطفلة الأمل، لتبقى سوريا الجريحة تنزف دمًا، وموجات المهجرين يلحقون نور غرقًا أو حرقًا...

أما آن الأوان لصبحك بلادي أن يتنفس ؟!





المؤلف في سطور

- حاصل على أهلية التعليم الابتدائي من دار المعلمين بدمشق ١٩٧٠ ، وإجازة في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق ١٩٧٥.
- عمل مدرسًا في ثانويات سوريا والكويت، ثم مدرسًا أول ، فموجهًا ، ومازال.
- من إسهاماته : المشاركة في تأليف كتب اللغة العربية للصف الثاني في وزارة التربية بالكويت ، كما عمل مصححًا في صحيفة الأنباء بالكويت.

- **المؤلفات :**

- مجموعة قصصية
- الحرمان : رواية
- بيت جن : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٩م
- الطفلة سوريا : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٩م

- البريد الإلكتروني: aldomani@yahoo.com



Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.net